
برق بين الغمام
أحاديث في النقد
د. حسن أبو الرُّب

نشر إلكترونيا في جمادي الأول،1437/مارس 2016.



الإخراج الفني: أبـرار الحازمـي
تصميم الغلاف: إدريـس يحـيى
التدقيق اللغوي: خـيرية الألمـعي

محتـــويات الكتـــاب

إهداء

إلى روح والدي...أباً وصديقاً...رحمه الله وأسكنه فسيح جنّاته

إلى

أمّي التي أسأل الله أن يمدّ في عمرها طويلًا

بالصحة والعافية... والبركات

تقديم

هذه إضمامة من المقالات والخواطر والدراسات الأولية من التي كان مؤلفها قد نشرها في الصحف المحلية، وفي المواقع الإلكترونية، وهي في مجموعها تمثّل خبرة استوعبها الكاتب واستوعاها، فعبر عنها بأداء صادق، وآنًا بعاطفة تمتح من خيال مسوق بإثارة.

"برقٌ بين الغمام"-عنوان، أجدُ فيه مزيجًا من النظرات التأملية والنقد الاجتماعي والسياسي والثقافي، ويحضرني هنا ذلك البرق الذي شامه امرؤ القيس في معلقته وقد أرانا وميضه، فسحّ بعد الحبيّ المكلل مطرًا مغدقًا، وغيثَ بركة.

أقول ذلك ما دام الغمام يدلّ على بادرة الخير وطلعة التغيير ونشوء الحركة، فالبرق هو الإشارة الوضاءة، حيث يتواصل الرمز هنا مع مناخ الكاتب أو حالته من الوعي؛ فالبرق في السماء صورة دالة على حدوث شيء يُرتَقب، لكن ما بعد البرق هو الذي يحدد نوع هذه الصورة، ومنحى هذه الحركة، ومن هنا يظل الكتاب بمقالاته مدعاة للبحث في محاور تتبأر في معاني الخير والحق والجمال، وبصورة جادة مستجدة.

ليست المقالة فنًّا سهلًا- كما نعلم، فهي على تعدد أنماطها تحتاج كثيرًا من الإحساس بالشيء أو الوعي به أولًا، وأنت حين تعايش حدثًا ما، تعايشه بقلبك وعقلك وثقافتك ودرسك، لكن ذلك لا يعدّ السبيل الوحيد للكتابة؛ لأنك بحاجة أن تترجم كلّ هذه الصور والأحاسيس بلغتك أنت، وتستعين بأدواتك، وتنهل من معجمك الخاص لترسم كل ما تشعر به، وتحوله من لغة الشعور إلى الحروف والتراكيب، وهذا ما نلمسه في "برق بين الغمام".

يتجاوز العمر الزمني لهذه المقالات العقدين -كما يبدو لي- وهي تغطي أحداثًا متعددة في تلك السنين، كعودة المقاتلين الفلسطينيين بعد توقيع اتفاقية أوسلو، والحرب على العراق، وما تعرضت له المدينة المقدسة من سياسة تهويد وتدنيس

للمسجد الأقصى، وتصف معاناة الفلسطينيين بعد الانتفاضة الثانية عام 2000م، كما ورد في مقالته "طريق الآلام"، ثم إنها تصف سياسة الظلم التي تمارسها أمريكا بحق الشعوب العربية في انحيازها المطلق لإسرائيل، وهي أيضًا تقدم نظرات واقعية لأوضاع التعليم في فلسطين في ظلّ وجود السلطة الوطنية، وتشير إلى رحيل بعض الدعاة كالشيخ كشك، وبعض المفكرين النقاد كعز الدين إسماعيل، وغير ذلك من مقالات اجتماعية تشخص جراح الأمة في هذا الزمن العربي الصعب.

إنها رحلة عبر أحداث عايشها الفلسطيني بجُماع ألمه وأمله، وواكبها القارئ العربي بمعاينة وتساؤل، إنها إعادة للتفاعل مع الحدث، وإفادة في مراجعة الموقف، فكيف لمن يعايش همًّا أو يتابع مسألة أن يخفف من غلواء أو لأواء إلا بالتعبير، وصولًا بعد التأثر إلى التأثير!

ربما تمّر الأشياءُ من حولنا في أحايين كثيرة، مرورًا عابرًا، فلا نلقي لها بالًا، وكأنّها أصوات غريبة نشازٌ قد أفرِغَتْ من الصدى، غير أن الشاعر أو الكاتب لا يستطيع أن يمر من غير وقفة، فالفكرة تجول في الصدر، وفي الخاطر، فلا بد إذن من خاطرة، ولا بد إذن من قول!

أحيي كاتبنا د. حسن أبو الرُّب على كتابه الأول – باكورة نتاجه الثقافي والنقدي، وأرجو له المضي قدمًا في عطائه ووفائه للغتنا ومجتمعنا، وأشكره على هذه الثقة الغالية التي دعتني لأن أكتب له هذا التقديم دلالة تواصل، وأصالة موقف.

أ. د فاروق مواسي
باقة الغربية-أكاديمية القاسمي
4 آذار 2015

أحاديث في النقد الاجتماعي والثقافي

المعـــــــــاني... الضائعـــــــــــة

أحيانًا تحاولُ ألّا تكتب، تحاول أن تلزم الصمت، أو الحياد بلغة العامة، ولكنّك تشعر بدافع كبير، يشدّك من لسانك، ويدفعك للحديث، كما يدفع بك الظمأ السير إلى الماء! وهناك من تكون حاجتهم للحديث أشدّ من حاجتهم إلى الماء؛ لأنّ الحياة عندهم تكون بمقدار ما يفعلون لا بمقدار ما يشربون.

إنّ الذين لا يستمعون للحديث، ولا يروق لهم التفكر والتدبر في مظاهر الحياة ومواقفها اعتادوا دون شكّ أن يعيشوا لذاتهم، فيفكروا فيها فقط، ويحلموا لها، ويعملوا وفق ما تشتهي، لا وفق ما ينبغي. أولئك اعتادوا أن يسيروا عكس التيار دائمًا، ويعتقدون أن الأمر كله يملكون. وأنّ الدنيا حبالها بأيديهم، يشدونها متى شاؤوا، يخلون سبيلها عندما يطيب لهم ذلك.

ولن أستقصي كثيرًا، فالداء الذي استوطن عقولنا يأبى الرحيل، وقلوبنا في حالة رقص، أشدّ ما يكون الرقص جنونًا، ولا يكون ذلك وفينا قليل من عافية، أو ضمير نسمح له أن يقول كلمة الفصل!

وما من داءٍ أشدّ فتكًا بالشعوب من الجهل والتجهيل، وذلك ما نشكو منه؛ الجهل الذي لا يقف معناه عند خط ظاهر، أو معنى قديم، بل يقفز معناه فوق كلّ الضروب التي لا تعني إلّا التأخر والتقهقر خلف الأمم والحضارات. وأنت تجد في كثير من المجالس الثقافية، كلامًا جميلًا وأهدافًا سامية، تعبر عن مدى الحرص على الوعي، والنهوض والتقدم والمحافظة على كلّ المراكز أو الأماكن التي يتولدّ فيها العلم.

كثيرة هي تلك المراكز، وكثير هم الذين يحملون الأمانة بصدق وانتماء وإخلاص!

ومن يستطيع أن ينكر قيمة العلم؟ أو ينكر رأي الماضي والحاضر فيه؟

من يستطيع أن يقلّل من حاجتنا إليه في كل وقت؟ وبخاصة في ظلّ هذه الظروف المعقدة، التي تلفّنا من المحيط إلى الخليج كظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها.

إنّ المأساة الكبرى، لا تكمن في قلة العلم، أو قلّة المتعلمين، أو عدد المراكز العلمية؛ فعلّتنا ليست في ذلك، فمدارسنا وجامعاتنا وافرة، ومعاهدنا ومراكزنا مبثوثة في كلّ اتجاه. لكنّ العلّة أننا لا نحبّ العلم لكونه علمًا فحسب؛ ولا لأنه ذو فائدة ونفع كبيرين، ولكن لأنه وسيلة للكسب، أعني كسب لقمة العيش، ولأنه طريق نتسابق فيه لنيل الرتب والمناصب، وكأننا نريد منه الذي لم يوضع له أصلًا، حتى فقد أو أصبح يفقد كثيرًا من بريقه وشعاعه ثم مزاياه وأخلاقه أيضًا.

ولستُ أبالغ إن قلتُ أنّ مكانة العلم والمتعلمين قد انحدرت إلى أدنى درجاتها في حياتنا اليوم! فبات لا يثير فينا شيئًا من المتعة التي كان يحققها في العقود الخالية، وغدا المتعلمون لا يثيرون في النفوس إلا الفكاهة والدعابة، وربما السخرية بعض الأحيان. ولعلّ الأهم في هذه الكارثة أنّ العلم انفصل عن حياتنا، فصار لا يلامسها إلّا في النزر اليسير في قاعات الدرس، أو خطب يوم الجمعة، أو ما يكتبه بعضنا في هذه الصحيفة أو تلك!

وكأننا ليس من أمّة اقرأ؛ التي نزل عليها القرآن الكريم، فقلب حياتها من جفاء البادية إلى لين التحضر، ومن فظاظة الطبع إلى سماحة الدين الجديد، فأوجد لها قلبًا مُحبًّا للخير غير الذي كانت تعيش به في الجاهلية، وعقلًا وقّادًا غير الذي حملته في داحس والغبراء أو البسوس!

أجل، قد انحدرت مكانة العلم وطالبيه في هذا الزمن، ليس لعيب في العلم ذاته؛ بل لتبدل المقاييس التي نستعملها في حياتنا، تلك الحياة التي تسيطر عليها القوة الاقتصادية، فما نفع العلم إن كنت فقيرًا؟ أتستطيع أن تأكل وتشرب وأنت تقتني الكتب والمجلات فتقرأ أو تكتب؟ ما نفع العلم يا صاحِ، وفلانٌ يحصد الأموال من التجارة أو الزراعة أو لممارسته مهنة ما؟ وطريق التجارة أو الزراعة أو المهن التي لا تحتاج من سني الدرس ما يحتاجه طالب العلم؟

إننا لا نعاني بقدر ما يعاني العلم فينا! معاناة ندركها تمام الإدراك، فتراه يتألمُ ويتوجعُ ويتمزق، ويكاد يفقد معناه، ويصبح مقتولًا، من ممارساتنا

وتبدل معتقداتنا، ويعود هو في بقايا أنفاسه من شرها، ونحملُ خطاياها بكل حسرة وألم ...!

إنّ العلمَ يا صاح، حين يعجز عن ممارسة الدور الذي رُسِمَ له لا يكون عندئذ علمًا محضًا! بل يصبح كابوسًا لا يجلب سوى التخبط والفوضى. ونحن نتوهم أنه الصواب، وهو المصيبة التي تنوح فينا من الأعماق.

العلم يحرك الإنسان، يبعثه من الجمود، كمصباح الكهرباء ما إنْ يسري فيه التيار حتى يشع نوراً! يسمو بالإنسان نحو المثل والقيم العليا، يصبح صحيح العلم بانيًا، داعيًا للخير والصلاح في بلده وأمته، تسعدُ بلقائه، وتأنس بأقواله، وتستمتع بمجالسته، وكأنه زهرة لا تقوى إلّا على أن تنشر الطيب في ريحها المنبعث، والنضارة في لونها الجميل!

وأنت حين تبحث عن بعض هذه المعاني، تكاد لا تجد منها شيئًا، فتلقى -إن لقيت – رجلًا يفيض لسانه علمًا، وأفعاله لا تتصل بالعلم في شيء! فهو يسرق ويرتشي ويغشّ ويتلون ظانًّا كل ذلك من الفطنة والدهاء والعلم!

وبعض هؤلاء تجدهم يأخذ من العلم ما يحقق له المنفعة فقط، وحين يجد شيئًا يتعارض مع أهوائه يلقي به جانبًا، فيزدريه، ويعدّه بضاعة كاسدة!

إنّ العلم يا صاحِ، هو الذي يميز بين عقل وعقل، وبين حياة أمة وأمة، فيرفع القيم والمبادئ، ويسمو بالمثل، ويسير بصاحبه إلى راحة النفس، ومتعة الروح، والشعور بالنشوة. وحين تعمل يسكب فيها لذة العمل، فتشعر بسعادة غامرة وهي تقضي وقتها لحظة بلحظة، كالذي يبني قصرًا منيفًا لبنة لبنة، كلما انتقل من لبنة تاق إلى الأخرى. وقد تجمد العلم في حياتنا، ولم تعد الدماء تجري في عروقه، ليس لأنه يتجمد؛ بل لأننا أردنا له ذلك، وكتبنا له أن يمرّ كيف نشاء نحن، لا كيف يشاء هو، فوصلنا إلى وصلنا من اليأس والعجز، والتأخر والفوضى حتى صدق فينا قول شاعر النيل:

إن كان عهدُ العلمِ هذا شأنُه فينا فعهدُ الجاهلية أرْفَقُ

وما وصل العلم ولا المتعلمون ولا العلماء إلى ما وصلوا إليه من قهقرى، إلّا لوجود خلل كبير في شبكة الإيمان التي نحمل وشمها، ونجهل فهمها، وهي أولى أن نقف عندها؛ لأنّ العلم والتطور والبناء والرفعة كلها معانٍ سامية تنبثق من شجرة الإيمان، وجذور العقيدة الصحيحة. لذا لا خير في أمّة تنسلخ عن عقيدتها، وتتنكر لماضيها، وترمي عصور الحضارة والانتصار بالتخلف والرجعية؛ فما بعد ذلك من عجب!

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحي دينـا
ومن رضي الحياة بغير دينٍ فقد جعل الفناء له قرينا

10/12/1993 صحيفة القدس

كبوة الرجال

قديمًا قالوا: "لكلّ جواد كبوة" يريدون من ذلك أن الإنسان مهما بلغ من الحظ والتوفيق والنجاح لا يمكن أن تخلو طريقه من العثرات؛ بل لا بدّ أن يقع مرة أو يكبو، كما قد يكبو الحصان الأصيل، وهذا من باب تشبيه وقوع الرجل بالحصان أو الجواد. فهو قول سار في الناس مضرب المثل. ولعل دلالة هذا القول تفيد أن على الإنسان أن يصبر على الأذى، ولا يشكو سوء حظه من أول عثرة، فبقاء الحال من المحال، ويوم لك ويوم عليك وهكذا...

إنّ كبوة الإنسان لا تدلّ على ضعف أو عجز فيه بمفهوم الضعف والعجز الذي نعرفه حين نسمع هذين اللفظين، وإن كانتا تدلان على شيء فإنما تدلان على أنّ الطريق لا يمكن أن يظلّ مفروشًا بالورد والحرير، فالأيام لا تسير على سمت واحد، والرياح لا تجري في اتجاه محدد وقتًا طويلًا، فكلّ شيء في الكون موضوع للتبدل والتغير، فلا الصغير يظل صغيرًا، ولا السليم يبقى سليمًا، ولا المحظوظ يظلّ محظوظًا، ولو بقي الأمر يسير على شاكلة ما، لملّ الإنسان من الحياة، وأصابه اليأس، وتقوقع عقله في حيّزٍ محدد.

لذا خلق الله الفصول الأربعة، دلالة على مضي الزمن، وتغير الحال، من أجلّ أن يستمرّ الإنسان في عيشه بلا نكد ولا سأم، فيزرع وينتظر، ويعمل ويحصل على الأجر، ويسافر وعيونه على الوصول، ويعيش وفي قلبه الأمل والرجاء. فطريق الحياة قائم على التغيير؛ سواء بالصعب أو بالسهل، بالبكاء أو بالفرح والسرور، بالحلم الجميل أو بالهواجس والكوابيس...!

قد ينظر كثير من الناس إلى ما يواجه من مصاعب ومشكلات نظرة قاسية، تخلق لهم القلق والتوتر، وتتركهم حيارى فيما يفعلون، يكثرون من الشكوى والأنين، وهؤلاء مع الزمن لا يرون من الدنيا إلّا ظلامها، وأحزانها، ولا يذوقون غير أوجاعها وحسراتها، حتى لو أتاهم الفرح وتحققت لهم الأحلام؛ فسيقلبون بنظرتهم تلك الفرح والأحلام إلى نواحٍ وبيت عزاء لا ينقضي...!

والحقّ، إنّ المصاعب التي تترنح في طريقنا عادة لا تكون بنفس الدرجة من القوة، ولا كلّ الكبوات ذات طعم واحد، فمن المصاعب الثقيلة ما يكون ضحيتها ناسٌ حملوها فوق طاقتهم، فجثا ألمها على صدورهم حزنًا وغيظًا، وساروا بها السنين وهو صابرون ينتظرون نهاية الطريق حتى أتى أمر ربك بالفرج والبشرى، فكان للفرح طعم آخر أكثر مذاقًا من طعم الفرح القادم من غير صبر وانتظار!

قد أكون مخالفًا لرأي كثير من الناس؛ حين أرى أن الإنسان أقوى من الحال أو الواقع الذي يمرّ به، وأنا مقتنع بهذا الرأي؛ فالإنسان بما ميّزه الله عن باقي المخلوقات بالعقل والإرادة، وبما فضله عنها بالشكل والمضمون، يظلّ هو الأقوى وإن هزمته الظروف مرة، فهو قادر على الوقوف دائمًا ليواجه الحياة ما دام يتسلح بالإيمان، ويتزود بالأمل والعزم.

إنّ الدنيا ما بقي فيها ساكن ومتحرك قادرة دائمًا على أن توجد من ينتصر عليها، ويقلب من صحرائها جنات وحدائق، ويجعل من سهلها ومائها حياة جديدة باسمة.

لقد هزم المسلمون في وقعة أحد هزيمة مُرّة، وتفرقوا من حول النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يبق حواليه إلّا أشدّهم إيمانًا كأبي بكر وعمر وعلي وبضعة رجال، غير أن هذه الهزيمة لم تكن لتغير من طريقهم شيئًا، ولم تزدهم إلّا ثباتًا على الحق، وجعلتهم بعد ذلك يراجعون أنفسهم ويبدؤون من جديد، مراجعةً وضعوا أصابعهم فيها على الأخطاء، ولم تأخذهم الهزيمة نحو الانكسار واليأس؛ بل ما إنْ انتهت المعركة، ودفنوا شهداءهم، وأنهوا أحزانهم حتى اشتعلت جذوة الإيمان من جديد، فأقبلوا على الدعوة بكل عزم وثبات، وساروا خلف قائدهم وقد أفادوا من الدرس، فصنعوا ما صنعوا من الانتصارات، وخرجوا من الجزيرة ينشرون دعوة الحقّ لا يخافون إلّا الله، فتحقق لهم ما أرادوا من النصر والتمكين.

إنّ الشعور بالرضا والشعور بالسعادة درجتان من الأحاسيس تفيضان في النفس حين تكون أمور الإنسان تسير بخط صاعد لا انكسار فيه، رغم أنّ هذا الشعور يتفاوت من إنسان لآخر، بتفاوت قدراتهم وأحلامهم؛ لكنّ أحلى المشاعر بالسعادة هو الذي يكون تاليًا لمجهود كبير، أو معاناة مُرّة!

نعم، ليس من النافع أن يشعر الإنسان بالإحباط إذا تعرض مرة لهزة، أو وقع في عثرة ما، بل الأولى أن تكون هذه العثرة أو الكبوة دافعًا قويًّا للنهوض من جديد، وتجديد العهد مع النفس، وحملها على الصبر والثبات؛ لأنّ المواقف الصعبة هي في الحقيقة اختبارات لعزائم الرجال. وما الرجال العظام الذين لمعت أسماؤهم في التاريخ إلّا رجال تحملوا من المصاعب أكثر من غيرهم، وطحنهم الدهر بكلكله، فصابروا وصبروا حتى تحقق لهم ما أرادوا من الأماني والأحلام!

لتكن الصعاب مدارس نحن تلاميذها، ولتكن عثرات الزمان اختبارات نقوى على اجتيازها، ولتكن دافعًا لنا إلى الأمام، ومرشدًا وموجهًا نحو المستقبل. وبغير ذلك ستتراكم أمامنا المصاعب والمصائب، وستنهال علينا الشدائد، وستصبح أجسامنا مسكنًا للآلام، نجلس في الظلمة باكين شاكين، وكأن الشمس لا تدور من حولنا ولا ندور حول أحد!

إنّ الذي تخيفه الشدائد تخيفه الحياة، وبين حياة يحرص عليها لدرجة الخوف وزمان يسير ولا يتوقف يجلس يتململ في أوهامه وهواجسه، تراه يغلق مداركه، ولا يستقبل إلّا الخوف والرعب، ولا يرسل إلّا الحسرة والندامة، ذاك الذي لم يقرأ سطرًا في التاريخ، ولم ير عصفورًا في قفص، يمشي الهوينى مخافة أن يعثر بحجر، وكأنه نسي قوة الله في الكون، ونسي نصيبه المقسوم في الدنيا، فإذا جلس، جلس مشلولًا، وإذا نهض، قام متثاقلًا، وكأني به يسيرُ نادمًا لِمَ يكون!

إنّ الحديث عن الرجال، هو حديث عن المصاعب والشدائد، ومن أراد أن يستكشف قوة الإنسان وعزيمته عليه أن يدرس الطبيعة، فإنّ في اختلاف مناخها وتضاريسها وهوائها اختلاف في طبيعة البشر وقدرتهم على الصمود، وكلما انغمسنا في حياة الدعة والراحة كان وقع المصاعب والمصائب علينا أشدّ، والعكس صحيح! لذا، فكبوات الرجال؛ أقصد المصاعب والشدائد، هي الطريق لمعرفة الحياة وسرها، وفهم كنهها، وهي الطريق للعيش فيها ناجحًا متفوقًا منتصرًا، وهي الأحرى أن نخوضها معتمدين على الطاقة التي أودعها الله فينا بإيمان وعزيمة وإصرار، فهل وعينا ما هي الكبوات؟ وهل وعينا مكانتنا بين الرجال، أعني بين الأمم؟

1993/1/24 صحيفة القدس

عندما لا ينفع الكلام...!

كثير هم الذين يكتبون، ويمضون وقتًا طويلًا في التمحيص والتدقيق، ويخلون بأنفسهم، هاربين من ضجيج الأبناء، وثرثرات النساء، لينسجوا من الواقع الممزق، تجربة ما، أو حكمة وصلوا إليها بعد عناء، أو يوضحوا أمرًا جديدًا قلّ من التفت إليه! وهم في ذلك يكشفون عن قدرات إبداعية، وطاقات فنية، تتحلى بها الصحف، وتتزين بها المكتبات، وتكون وجبة معرفية للعقل الإنساني.

وكثير هم الذين يعتلون المنابر، فيصرخون من فوقها، في أيام الجمع والمناسبات الرسمية وغير الرسمية، يبتغون نشر الفضيلة، وبعث الوعي؛ فيُشخّصون الأمراض الاجتماعية، أو ينقدون الواقع السياسي، ويدلفون إلى الماضي فينوحون عليه تارة، ويرنون إلى المستقبل المشرق، فيرونه ما يزال علقة لا يعلم خلقها إلّا الله! أتعيش فتولد؟ أم تموت وهي لم تولد بعد؟

وترى وسائل الإعلام تمضي في أكثر برامجها، فتعرض الأشكال والألوان التي يقع في بعضها النافع السليم، من الغرض والهدف المنشودين، أو الأمل المرجوّ لعلاج أمراضنا التي نئنّ بها في البيت والحيّ والشارع والسوق، حتى في المسجد أيضًا...!

وترى مراكز التعليم وأجهزة التربية تحتضن مئات الآلاف من البشر، تبثّ الخير في نفوسهم، وتشعل الأنوار أمام عيونهم، وترسم قواعد المستقبل.

إنّ كلّ هذا المسموع والمقروء والمشاهَد على كثرته، هو محاولات قد تفرضها الضمائر الحية على أصحابها، أو المصلحة العامة أو الخاصة. وليس في هذا ما يضير! لكنّ السؤال الذي يبقى حاضرًا هو أين وصلنا من كلّ ما نسمع أو نقرأ ونشاهد؟

إنّ كثرة التردد على الطبيب ليس من أمارات العافية! ولا هجره أيضًا، وطيّ المرض في الأحشاء، ومحاولة ردع النفس عن الظهور بحالة مرضية! فهل من المنطق أن تكون كثرة الأمراض أسبابها قلّة الأطباء؟ أو ضعف قدراتهم العلمية،

وطاقاتهم العقلية؟ أم يدلّ ذلك على عدم الالتزام بوصفات الطبيب، والابتعاد عن طرق الوقاية، مما قد يجلب التعب للجسم ويجعله عرضة مؤكدة لداء لعضال؟

هنا تكمن المعاناة، وهنا يتضح عمق الجرح النازف، ويتكشف المرض الخبيث الذي استشرى في الجسم فأقعده، وشلّ حركته، فلم يبق منه سوى الرّسم! وهنا أيضًا يكمن الأمل؛ إذ بمعرفة هذه النتيجة نكون قد بدأنا أول خطوة في الاتجاه الصحيح في تشخيص الداء، وطلب العلاج.

إنّ ما أصاب مصر الكنانة، قبل شهر تقريبًا من زلزال قوي هزّ القاهرة، فدمّر مئات البيوت وقتل مئات الأشخاص، وجرح آلافًا آخرين؛ ليس مفاجأة على من يتابع ويتأمل فيما يحدث! من ظلمٍ وقتل وتدمير لا يمكن له إلّا أن يرى في هذا الصوت الهادر والردّ القوي طريقةً أخرى لعلاج حالتنا السيئة، وضياعنا وتشرذمنا، ولا يعدو أن يكون هذا الذي حصل، دقة ناقوس تنذر بالخطر، بل هو نذير من النذر التي كانت في الألواح وأصبحت واقعًا لا يمكن الهروب منه!

لقد كثر الفساد في البرّ والبحر، وكثر المفسدون المترفون، وانغمس الناس بالمعاصي، راضين بمتعة عابرة، ولذة زائلة، كلٌّ بالقدر الذي قُدّر له!

ونحن الآن نشاهد حلقات من مسلسل طويل يعرض لنا واقعنا رغمًا عنا؛ مسلسل لا يعرف قويًّا ولا ذكيًّا؛ لأن القوي والذكي من نجا بإيمانه وطاعاته، وهرب من الفساد والمفسدين.

ما أحوجنا أن نصحو من هذا السبات العميق! وإلى يقظة عملية فاعلة، نجدد فيها العهد مع الله ومع أنفسنا أن تلزم الخير أين كان، ونهجر الكفر والفجور حيث كان! فإنّ داءنا كالسيل الجارف يندفع من القمم، وليس من المعقول أن نبقى نسير في طريق هذه بعض نتائجه، قتل وتدمير ولا نجاة من الله إلّا إليه!

"وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا"

1992/11/9 صحيفة القدس

لنجعل الواقعَ... تحدياً

عند الحديث عن موضوع ما، والغوص فيه، لا بدّ من معرفته جيدًا، فإنْ تعذر لا بدّ من الإلمام به على الأقل، ثم الصدق في القول بعد ذلك، ورسم خطة واضحة لعرضه، وكلّ ذلك عناصر أساسية لا ينكرها أحد؛ لأنها تعين على الوصول إلى النجاح في تحقيق الغاية، وتعطي الأمل، وتزرع الثقة، في اجتياز اختبارات صعبة في الحياة، وتسهم في صقل تجارب الإنسان بالحكمة والخبرة والمران؛ تلك التي لا يستغني عنها عاقل.

إنّ معرفة الأمور معرفة واسعة عميقة، تحثّ الدماغ على تحريك خلاياه، وتفعيل ملكاته، فتدفعه للتطور، وتقرّبه من الحقيقة، وتجعله في مرتبة أعلى من التي هو فيها. أمّا الواقع، فليس هو الصورة التي نمارسها بجوارحنا؛ لذا أصبح ينفصل عنّا، ونبتعد عنه، ففي زمننا هذا، يجوز أن تفعل ما لا تقول، وأنت مرتاح، وتقول ما لا تفعل وأنت صادق؛ لأنّ المرء عند غياب الموازين السليمة، والمعايير العادلة، لا يلجأ للكيل أو التحكيم، فخاصية الذات أو(الأنا) في بعض النفوس التي لا ترى سواها في المرآة، ترفض أن تتقبل معادلة الوزن بالقسط، ومعيار المثل. لذا لا كيل إلّا لمن انتصروا على ذواتهم، وهزموا شياطينهم، وخرجوا من عبودية الأهواء، إلى فضاء الفطرة السليمة، وذوق الناس العام. وأولئك هم قليل، وربما تعود قلتهم هذه إلى تمسكهم الشديد بمبدأ ما، ورفضهم لمبدأ آخر، لقناعتهم أنّ الشمس تأتي من المشرق ولا يمكن أن تأتي من الشمال. والواقع ينطق بصدقهم؛ إذ لم نسمع أنها جاءت من اتجاه آخر.

إذا كان من الضروري على المرء أن يقول الحقّ، ويَزِنَ بالعدل، فعليه أن يحبهما أولًا؛ إذ إنّ طبع الإنسان يسير به إلى ما يحبّ، ويبتعد به عما يكره، والساعي للحق ساعٍ إلى الحقيقة، والحقّ أعظمُ، والحقيقة لا تعظم إلّا بالحق. ومن أحبّ شيئًا عرفه ثم اتّبعه، ومن هنا ترى المصائب تنهش في الأجساد، ولا تترك العقول؛

لأنّ الكثير منّا يحبّ من غير علم، ويعمل من غير حبّ، ويسير على غير هدى؛ ليس لأنّ سجيته مشاكسة، وفطرته معاكسة، لكن لأنه لا يرى سوى شخصه، ولا يسمع إلّا صوته، فكأنه ألْزَم نفسه مُلْكًا خاصًّا يحكم به على غيره بالجهل والحمق، وكأنه بالناس عليم بصير...!

إنّ في الحياة خللًا كبيرًا نتمزق فيه، وتتصارع أشلاؤنا في أرجائه، ونئِنُّ تحته. هذا الخلل الذي تدفعه رياح التغيرات السريعة، فتهزنا هزًّا عنيفًا ثم تتركنا نتهاوى مثل ورق الخريف، فترقص بنا الريح يمينًا شمالًا، وغيرنا تتفتح براعمه، ويشتدّ ساعده، معلنًا ميلادًا جديدًا، أو دورة حياة أخرى، نكون فيها الأضعف، ويكون فيها الأقوى...! تهزّنا الرياح ليس لقوتها فحسب؛ بل لشدة ما بنا من ضعف، ذاك الذي نخرت فيه أنياب السنين الطويلة التي كان الأنسب أن نكون فيها أقوياء، حاكمين، لا مستعبدين، خانعين، نتنقل من عتبة زمنية إلى أخرى، وفي ممرات مظلمة وضيقة لا تتسع إلّا لنعش آلام أو نعش ليلة واحدة...!

لقد كبر الداء، وعظم الخطب؛ لأننا نفقد قيمة السلامة والقوة، ولا نحسن إلّا خلق المتاهات والسير في المنحدرات؛ ليس لأنّ طبيعة الجغرافيا تتطلب منا ذلك؛ لكن لأنّ ولادتنا أصبحت لا تتم إلّا تحت جمهور من القابلات، وكأن الزمان ضاق بنا ذرعًا؛ فصار وجودنا وعدمه سيان.

لقد أصبح الثبات على الخطأ سنّة، والرجوع عنه معصية، نتحدث في الواقع ولا نريد أن نكون واقعيين، كأنّ الخروج عن الواقع له تفسير يرتفع فوق الهزيمة، ويقترب من الصواب، من أجل ذلك ضاع الواقع، وصار يبحث عنا ولا نبحث عن أحد...

ما أحوجنا إلى فهم أنفسنا! وكشف جوهرنا الذي لا نتعامل به، لذا ضُيّعتْ المبادئ والقيم التي كانت في يوم ما لافتة كبيرة تطوف أرض المشرق والمغرب! صلاتنا في أكثرها عادة، أو رياء، وهي العبادة المستمرة طوال أيام السنة، لا تنقطع. وقد وضعت لبقاء التواصل بين العبد وربه، فنعرض رغباتنا وحوائجنا على من بيده

القضاء، نأتي إليه في مناجاة وخشوع وعشق، لكن أين يحدث هذا! في أي بيت من بيوت الله أو بيوت عباده؟ أجل، كثير منا يؤدي هذه العبادة، لكن في رسمها فقط، ليس في معناها وغايتها ومبتغاها، لذا ضاعت الصلاة، وعاد إلينا الدعاء مذمومًا مدحورًا...!

إنّ الخروج عن الواقع لا يكون إلّا للذين يشكون من رؤوسهم، ولا يسمعون إلّا الموسيقا الصاخبة، وينامون ساعات طوالًا، يسيرون مع الريح وهم خلفها، يرتفعون عن الأرض لأنهم خرجوا عن الواقع هزيمةً وضعفًا...!

أقول، ما أحوجنا إلى الالتفات إلى الوراء، لنرى ماذا صنعنا للتاريخ؟ وماذا تركنا للأجيال؟ ولا غرو أننا لا نلتفت لشيء؛ لأننا لم نصنع شيئًا لأنفسنا، لذا تكالبت علينا الأحداث التي لم نكن فيها إلّا كما يكون الملح في الماء، والزبد في البحر، فضاع طعمنا، وبهت لوننا! لِمَ لا تكون القلوب أوسع من المأساة؟ ولِمَ لا يكون الصدر أرحب من الهموم؟ ولماذا نشعر أن الداء أعظم من الجسد دائمًا؟ وفي ذلك معاني الاستسلام والخنوع والهزيمة، بل الاندثار أيضًا!

إنّ الواقع عند العقلاء يصنعُ لا يفرض، لأنه الصورة التي تعكس السلوك والمشاعر والإرادة، ولا تعكس الشمس والقمر والماء، ومتى كان الواقع مُعدًّا سلفًا لأحلامنا وآمالنا؟ أو مُعدًّا لأحد إعدادًا تامًّا؟ أينزل الإنسان من بطن أمه ماشيًا متكلمًا وآكلًا شاربًا وعالمًا؟ ألا يخضع لفترة رعاية كافية حتى يدرج في ركاب الحياة؟

إن الأصل في الواقع أن يكون صعبًا، محفوفاً بالمخاطر، والأصل في الإنسان العاقل أن يتكيف مع واقعه ثم يبزغ نجمه، كبذرة الأرض، ما إنْ تشعر برائحة الماء حتى تتململ تحت التراب فتطلّ بقوة وتشق طريقها واثقة الخطا، وتفرض وجودها في الواقع...

إذا كان قد كتب علينا أن نعاني ما نعاني من المصائب والنكبات، وأصبح واقعنا مؤلمًا وصعبًا، فلنجعل من هذا الواقع تحديًّا، نثبت فيه أننا قادرون على العيش بعزة وكرامة، وأننا أهل للتحدي والانتصار...!

1993/11/5 جريدة القدس

البادية... على شاشة التلفاز

تميلُ النفوس كثيرًا إلى الماضي، وتستمتع بالحديث عنه، أقصد الماضي البعيد الذي يمثّل البداية، وقوة العادات والتقاليد العربية، والقيم والمعاني السامية، الذي أصبح الآن حين ننظر إليه تراثًا أصيلًا خالدًا نعرضه في المناسبات، وكلما اشتدّ بنا الحنين.

إنّ لكل أمة تاريخًا وأمجادًا، وكلّ يشتاق لتاريخه وأمجاده، الذين طواهما الدهر ولم يبق منهما سوى الأسماء والكلمات. وهي أوقات عزيزة ورائعة وأنت تقرأ في ذاك التاريخ، وعن تلك الأمجاد! فتعلم كيف كانت؟ وكيف أمست رموزًا خالدة على رفوف المكتبات وفي بطون الكتب. وربما كنت مشاهدًا للتلفاز وهو ينقل إليك الصور التي توارت عن ناظريك زمانًا، فتتلهف للرؤية، وتنصت للاستماع؛ لأنّ في تلك البيئة –أقصد البادية – الأصالة والبساطة والعذوبة والصفاء والإبداع...!

وسرّ ذلك الاستمتاع هو أنك تشعر في داخلك أنّك من أمة عريقة، وأن أولئك الذين يتحركون في البادية على التلفاز جزء منك، من تاريخك وأصالتك ولغتك وتراثك...! لذا فحين تقضي وقتًا وأنت تتابع قصة بدوية على التلفاز، تكون في الحقيقة تلبي رغبة جامحة فيك وهي الشوق للتاريخ وللأصالة والبساطة والتراث...

إنّ في الماضي حياة قائمة، وشمسًا مشرقة لا تغيب اللهم إلّا عن الذين كُفّتْ أبصارهم، وانغلقت عقولهم، ورضوا بالانكماش والانعزال، فأنكروا تلك الحياة فأنكرتهم، لما بهروا ببريق الحضارة الغربية، فصاروا يستخفّون بكل قديم أصيل، وإنْ كان جزءًا من هويتهم وتاريخهم.

إنّ البادية الحلوة الجميلة هي التي أضاءت الأنوار للعصور اللاحقة، فسار السلفُ عليها حاملين إرثَ اللغة والأدب والعادات والتقاليد ونور العقيدة الجديد لينشروه في أرجاء الدنيا، فأقاموا القرى والمدن وسكنوها، لكنّ صلتهم بالصحراء

أو البادية لم تنقطع! بل بقيت في أعينهم منارةً وضّاءة، توحي لهم بالأصل وبالعزة والكبرياء...

كانت الصحراء مدرسة أو جامعة كبيرة واسعة، تضيق اللغة عن وصفها، حتى وأنت تسير فوق رمالها أو تشاهدها على شاشة التلفاز، تنبئك بالفرسان الذين صالوا وجالوا فوقها، وبالشهداء الذين رووا بدمائهم رملها الذهبي، وبالشعراء والحكماء الذين تنقلوا فوقها ذاهبين أو عائدين من مجالس الأدب والعلم. هذه الصحراء التي تحتفظ بأسرار الوجود العربي والإسلامي، فتحفظ للحاكم سطوته، وللرعية مغانيها، وللشاعر قصيدته، وللحكيم حكمته، وللفارس فروسيته، وللكريم نار ضيافته، وللبخيل خيبته، وللحيوان صوته وسرحانه ومنامه...!

هذه الصحراء التي لو أتيح لها أن تضع عنوانًا لكان ناصعًا فوق جبين التاريخ: أمة قوية بفكرها وعاداتها وطبائعها تستحق الحياة... ولو أتيح لها أن ترسم صورة، لرسمت أجمل الصور لإنسان عربي مستعد لحمل الأمانة والوفاء بالوعد، وحماية الجار، وإغاثة المكروب. إنسانًا شامخًا قويًّا رغم البيئة البسيطة والظروف الصعبة. هذه هي الصحراء، المصنع الذي له الفخر حين تَبوّأ مكان الصدارة في صناعة الرجال، وتخريج العلماء والشعراء والفرسان والقادة، ما تعجز عنه الأرض الخضراء...!

أجل، ليس عيبًا أن تقرأ الماضي؛ لأنّ الماضي فيه حياة الحاضر، ونور المستقبل، ولا حاضر دون ماضٍ، ولا مستقبل دون حاضر.

وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا يحرص التلفاز العربي أن ينقل الصورة المشوهة عن الصحراء أو البادية؟ ويجانب الصورة التي تليق بذاك الماضي العريق؟ لماذا يحاول التركيز على جوانب لا تسمن ولا تغني من جوع، فيدخل في نفوسنا الشكّ والظنّة في ذلك الماضي وفي تلك البادية!

إنّ سلامة الهدف لا تمنع من نقد السلوك أو القالب الذي تصاغ فيه الصورة المرئية، فبدل أن نجد الأمانة نجد الغدر والخيانة، ونجد قصص الحبّ والقتل هي المحور الرئيس الذي تدور فيه حياة البادية، ونجد شيخ القبيلة في مواطن كثيرة يحب السيطرة والمكر، والظلم بأبنائه ونسائه، ونجد الثأر هو الشغل الشاغل الذي يفكر به الأفراد البدو، حتى لهجة القبائل تجدها أبعد ما تكون عن الفصحى، وهذا ينافي حقيقة الصحراء التي حفظت اللغة أكثر من أيّ مكان آخر، وكان العلماء والرواة يقصدونها بقصد التزود بالشواهد اللغوية والنحوية، ليرسموا معايير اللسان العربي.

إنّ الصورة التي يحملها المثقف العربي عن تلك البادية أكثر ثباتًا وإقناعًا من تلك التي تعرض على شاشات التلفاز بين فينة وأخرى، صورة رسّختها كتب الرواة والأحاديث والآيات القرآنية، والأشعار العربية، هذه الصورة التي يستخلص منها أن الحياة في البادية لم تكن مسرحية كوميدية أو فيلمًا يكون فيه البدوي قاتلًا أو مقتولًا، أو قصة عاطفية يكون أولها حبّ ولقاء وآخرها عذاب وشقاء...!

إنّ أوجه الشبه بين حياة العرب في البادية قديمًا وبين ما نراه على شاشة التلفاز، بعيد عن الحقيقة، وينفي كلاهما الآخر، وهي صورة مُعْتمة مليئة بالدراما لا تشبع سوى أذواق العجائز والعوام. أمّا الدارسون والمثقفون، فهم مؤمنون أنّ الصحراء مدرسة وجامعة، وميدان فروسية، وسوق أدب وعلم، دون أن يمنع هذا وجود المظاهر السلبية التي يمثّلها بعض الأفراد في كلّ زمان ومكان من أرض العرب.

إنّ ما تعرضه شاشات العرب التلفازية من صور فظيعة عن حياة البادية يثير التساؤل لدى أصحاب الشكّ، والقيل والقال؛ شكٌّ يقول هل حياة البادية هي عينها ما يجري عرضه؟ وهل كلها قصص غرام وثارات دموية وسلب ونهب كما نشاهد؟ إذا كانت هذه هي صورة البادية الحقيقية فهذا يعني أن ما قرأناه وسمعناه من أساتذتنا كان حديثًا انتحله الرواة وصدّقه الأساتذة، ودرج مع السنين حتى بدا في عيوننا حقيقة لا وهمًا...!

لكن في الوقت نفسه، أيمكن أن تكون الأجيال طوال قرون طويلة قد توارثت تاريخًا منتحلًا حفظناه عن ظهر قلب؟ أيمكن أن تكون صورة العربي المتوارثة في البادية إلى نفوسنا وعادتنا أقرب أم هذه الصورة التي نشاهدها على التلفاز؟

لا شك أن الذي يعرض على التلفاز اليوم لا علاقة له بصورة البادية التي قرأناها، وسمعناها من أساتذتنا وشيوخنا، وذلك لقوة أحد الوجهين وضعف الآخر؛ فالبادية مصدر اللغة الفصيحة، وشاشات التلفاز تعرض لهجات عربية ركيكة لا علاقة لها بالفصاحة، والبادية مصدر الشعر والأدب، والشاشات تعرض حياة اجتماعية واقتصادية لا علاقة لها بالأدب واللغة والعلم، والبادية مصدر الإلهام والعفة والأمانة، وشاشات التلفاز لا تعرض سوى الغدر والمكر والخداع، وأمر آخر أن البادية أرض الإسلام، أضفى على أخلاقها لمسات روحية، فأضحت أكثر إيمانًا، وأشدّ حياءً ، وأصلب عودًا، ونحن لا نشاهد على شاشات التلفاز أثر هذه اللمسات الإسلامية في حياة البادية بشكل يثير الاستغراب والتساؤل..!

إننا ونحن نعرض كلّ هذا بإيجاز، يجب أن نتساءل عن البادية التي تعرضها شاشات التلفاز! أهي البادية التي قرأنا عنها؟ أم البادية في العصر الحديث؟ فإن كانت تنقل لنا مشاهد من صور للبادية في عصرنا الحديث فلا حرج في ذلك، رغم أن الأوْلى في العرض يقتضي عرض الشيء الذي يفيد الناس، وينمي مداركهم، ويشدّ من أزرهم، ويقوي عزيمتهم وإيمانهم بتاريخهم وعقيدتهم، ليحققوا النهضة المطلوبة التي طال انتظارها، لأنّ نقل حياة البادية المعاصرة إلى المواطن العربي اليوم لا يفيد في شيء، لا في علم ولا في منفعة أو خير يرتجى، سوى مساعدته على إمضاء الوقت بأسوأ ما يكون...

إنّ على وزارات الإعلام العربية أن تنهض بالعبء الثقيل الملقى على كاهلها، في نقل المواطن العربي إلى حياة كان فيها السيّد الكريم، والفارس الشجاع، والقائد المطاع، والمسلم الصادق، والشاعر العبقري، والعالم الفذّ، فهذه الصور من شأنها أن تخلق جيلًا جديدًا ينتمي إلى ذاك التاريخ الذي صرنا نبتعد عنه رويدًا رويدًا...

أجل، لنعمل على نقل تاريخنا وحضارتنا سواء في البادية أم في المدينة بصورة أكثر تقاربًا وتماسكًا وتلامسًا بواقع المنقول إليه، فهذا ربما يبعث الأمل من جديد في هذه الأمة، فتصحو من غفلتها، وتتبوأ مكانها الصحيح بين الأمم... وكما قال الشاعر:

مُنىً إنْ تكن حقًّا تكن أعظمَ المُنى   وإلّا فقد عشنا بها زمنًا رغدًا

كانون الثاني1993 نشر في صحيفة القدس

رحمة بالعلم والمتعلمين...!

"قال الطالبُ الفتى لأستاذه الشيخ: متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها؟ فقال الأستاذ الشيخ: لا أدري! وما أحسب أنّ الدنيا تصلح لو أنّ أهلها يصلحون في يوم من الأيام، ولكن هناك مقدارًا من الخير لا يستقيم للناس دونه أمر. ويسأل الطالب الفتى: وهل إلى ذلك من سبيل؟ فيردّ الأستاذ الشيخ: نعم، يوم يعرف الشعب حقوقه ومنافعه، ويبين لساسته وقادته أنه عليها حريص، ولها مؤثر، وأنه مستعدّ لأن يضحي في سبيلها، بما تضحي به الشعوب الكريمة في سبيل الاحتفاظ بالحقوق والمنافع العامة".

مثل هذا الحديث، يدور أحيانًا في غير مجلس، وعلى أكثر من لسان، ومقامه هو الذي يحرّك في النفوس أسئلة كالتي أثارها الطالب الذكيّ في حضرة أستاذه الشيخ.

وكثيرًا ما يلجأ الإنسان إلى تكرار ما يشاهده بأمّ عينيه، أو ما يسمعه بأذنيه، أو ما يمرّ به في مطالعاته، ليس حبًّا في التكرار، أو دلالة على قوة ذاكرته، ولكن لأنه يريد أن يعبر عما يجيش بخاطره؛ فيجد أن الصور متشابهة، بين ما رأى أو سمع، وما هو حاصل له، والذين يقولون إنّ التاريخ يعيد نفسه أحيانًا يكون حكمهم هذا داخل الدائرة التي نبحث فيها...!

إنّ الواقع الذي نعايشه يعجّ بالأحداث المتراكمة، ولا يكاد يمضي يوم، إلّا ونضيف فيه شيئًا جديدًا، لا أظنّ أنه يسهم في تقاربنا وتآلفنا! أو يمكن له أن يسير بنا إلى الأمل المنشود. وبقدر ما نقترب من الواقع بقدر ما نؤذيه؛ نريد أن نصنع شيئًا نافعًا للمواطن، فيخرج مشوّهًا، فتتكثــر آلامنا التي قلّ من يتصدّى لها بشجاعة واقتدار وحسن نية! ولعل الصمت الذي نلبسه أحيانًا كثيرة، يصيح فينا أننا نلبسه لأننا لا نملك قدرة على التغيــير، لشعورنا تارة بالعجز، وتارة أخرى بالهوان! ونحن بصمتنا المطبق هذا، من حيث علمنا، ومن حيث لم نعلم نكون قد

رضينا للسمّ أن ينتشر في الجسم، ونسلّي أنفسنا حين نهمس حيارى وغلابى "الموت مع الناس نعاس"!

قبل أيامٍ، وتحديدًا يوم الجمعة كان يوم إضراب شامل ساد مدينة نابلس، وتلاه يوم حداد لفّ المدينة أيضًا، ويوم الأحد راجت شائعات كثيرة تفيد أنّ هناك إضرابًا شاملًا يومي الأحد والإثنين، واختلفت البيانات بين تأكيد ونفي للإضراب؛ أو قلْ تضاربت ألسنة الناس في وجود الإضراب أو في عدمه! وبقي الأمر من اللّبس وعدم الوضوح، حتى صباح الأحد، عندما بدأت حركة السير تعمل كالمعتاد، وتحركت حافلات جامعة النجاح الوطنية تنقل الطلبة والموظفين منذ الصباح، وبدأت المحلات التجارية تفتح أبوابها، ووفدت حافلات المدن الأخرى تنقل الطلبة والمواطنين إلى نابلس، وعجب القادمون من هذا التضارب بين مؤكد ونافٍ للإضراب المزعوم، وعند الساعة التاسعة أصدر مجلس الطلبة بيانًا أكّد فيه وجود الإضراب، داعيًا الطلبة إلى مغادرة الجامعة! وشرع المسؤولون عن الأمن والحراسة بطرد الطلبة من الجامعة، فانفضّت جموع الطلبة ساخطة غير راضية، وقفلت الحافلات عودًا على بدء!

إنّ ظاهرة إغلاق الجامعات أمام الطلبة، وتعطيل حياة التعليم، بصرف النظر عن المبــررات التي نسمعها لهي ظاهرة قديمة، تخبو تارة، وتعود تارة أخرى إلى الظهور من جديد، وهي في جامعات الوطن أصبحت عادة، لكنها مقيتة مؤلمة! وبدأت تسيطر على أحاديث الناس في مجالسهم، فزاد نقاشهم فيها عبثًا، حتى صار الحديث فيها جدالًا لا يخوضه إلّا جاهل أو ثرثار، ولا ينأى عنه إلّا عاقل!

لكنّ مرارة هذه الظاهرة تشق على النفس، كلما عادت أحداثها المؤلمة للذاكرة، واستحوذت على التفكيــر، ولعل مرجع ذلك إلى ارتفاع وتيــرة الإضرابات بعامة، وإغلاق الجامعات بخاصة، ما يتــرك أثرًا سلبيًّا على تحصيل الطالب العلمي، ويزيد من معاناته الزمنية، فتمضي منه الأعوام هباء منثورًا، وهو ما يزال مسجلًا في الجامعة، لا يستطيع أن يتخرج، ولا يستطيع أن يتــرك، وقد أنفق من وقته وماله الكثير!

إن الذين يحملون حبًّا صادقًا لوطنهم، وانتماء قويًّا لأمتهم، وإيمانًا عميقًا بالنهضة والتقدم والازدهار، ويحرصون على قيم المجتمع وأخلاقه السامية، عليهم أن يحافظوا على هذه المبادئ، ويرفضوا أن تعصف رياح الجهل والتخلف بما يحققه هذا الشعب من نهضة علمية هي التي نتكئ عليها، في مقاومة المحتلّ! فمن ظنّ أن العدو سيفزع لإغلاق الجامعات الفلسطينية، فهو لا يعرف في السياسة شيئًا! لأنّ سياسة هذا العدو تقوم في الأصل على تجهيل الشعب ومحو ثقافته ومبادئه، وقد لجأ بنفسه إلى إغلاق الجامعات، ومحاصرتها، ووضع الحواجز في طريقها كثيـرًا، من أجل أن تعجز عن رفد المجتمع برجال مثقفين، يبثون الوعي والمعرفة ويكشفون حقيقته المقيتة، ويفضحون أساليبه في القهر والبطش والاستغلال!

لا نقول ذلك، لأننا نضيق ذرعًا بالإضراب؛ لكن لأننا نضيق ذرعًا بأن نؤذي أنفسنا ونقول هذه مقاومة، ستجلب لنا الحقوق، وترفع راية العلم خفاقة عالية فوق ربوع الوطن! ولأننا نحرص أن تبقى الأمور تسير من تحت أيدينا، لا فوق رؤوسنا، فتظلّ جامعاتنا قلاعًا حصينة، نعتزّ بها ونفخر، وشوكة يُغصّ بها المحتلّ!

نعم، إننا نقول بملء الفم، إن الإضراب الذي تغلق فيه أبواب الجامعات ودور التعليم ظاهرة سلبية لا يفيد منها إنسان وطني شريف؛ بل يقطف ثمارها المحتلّ حين يتراجع التعليم، وتنحط فيها مكانة العلم والمتعلمين، وتسهم في رحيل أعداد كبيـرة من العلماء والمتعلمين إلى جامعات أخرى خارج الوطن، وبهذا تكون هذه الظاهرة قد فعلت ما عجز عنه المحتل، من تفريغ الوطن من أهمّ ناسه ورجالاته!
فكيف لنا أن نصدق أن الليل صبحٌ؟ وهل يعمى العالمون عن الضياء؟ كيف لنا أن نصدق أن في إغلاق الجامعات وفتح المقاهي معركة شرف تنال أوسمتها بعد

حين! ونحن بحاجة لكل لحظة لنتعلم فيها جديدًا، ونبني فيها مفيدًا في عمرنا المطحون تحت عجلة الجهل واللامعقول!

وماذا يمكن أن نقول لطلبة في ألمانيا يحتجون مطالبين زيادة ساعات الدوام الجامعي؟ ويتظاهرون إذا فاتتهم ساعة من العلم! ما الفرق بيننا وبينهم؟ هل وقتهم أغلى من وقتنا؟ أم أننا شبعنا علمًا، فاحتاجه غيرنا؟ لقد اختلط الحابل بالنابل، فأصبحت مشاعرنا يلفّها اليأس والضجر، بعد أن كانت واحدة تخرج من عمق واحد! أصبحنا كالذي يقاتل بالغمد من بعد السيف، وباللجام من بعد الفرس، ولم يعُدْ شيء يحرك فينا ساكنًا، تحْسَبُنا أيقاظًا ونحن رقود، لا نعي ما نفعل!

نعم، إنّ تسييس العلم وجرّه إلى الصراع هو هزيمة كبـرى، تكتب لنا؛ فنحن نقاتل أنفسنا من حيث لا ندري، ونضرب بأحلام الأبناء والآباء والوطن، ونطعنها حتى لا تقوم لنا قائمة! وما حدث يوم الاثنين الرابع من تموز من طرد الطلبة، وإخراجهم من الحرم الجامعي هو تأكيد على أننا لم نهتدِ بعدُ إلى جادة الصواب، وتعزيز لظاهرة الفوضى والعبثية، والأنانية، وعدم احتـرام الآخر، وترسيخ لكل ما يجعلنا بعيدين عن القيم والمبادئ!

ليكن الأسبوع كله إضراب في سبيل زيد أو عمرو، لكنْ بعيدًا عن الحياة الجامعية، ومؤسسات التعليم الأخرى، لأننا بزجّ التعليم إلى ساحة الصراع، نكون نثأر للجهل الذي لم يمُتْ فينا. ولو سألت الذين لاذوا إلى الصمت في ذلك اليوم، لصرخوا بملء أفواههم أنهم يرفضون هذه الأساليب، ويمقتون هذه الظاهرة! وأكادُ أقسمُ أن نفوسهم لم تملّ الإضراب كما ملّته في ذلك اليوم! ولم تسبّ العلم والجامعات كما سبّته في تلك اللحظة!

وبعد، فنحن نتساءل كما تساءل الطالب الفتى: متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها؟ ومتى نستطيع أن نحدّد حقوقنا ومنافعنا، ونسعى لها بالطريق السليم، التي لا تجرح جسد العلم والمتعلمين؛ فيدمى الوطن بسنان أهله؟

متى نثبت للعالم أننا حريصون على البناء والحياة الفاضلة، والقيم والأخلاق، وأننا خرجنا من عقدة الأنا وأحببنا الإنسان، والخير والصلاح، واحترمنا رأيه، واستمعنا لأفكاره!

نحن بحاجة إلى جلسة كلّ مسؤول وواعٍ مع نفسه؛ ليزِن بالقسطاس ما صنعت يداه! حتى يكون الحكم عادلًا، وحتى تكون أعمالنا مشروعة ومقنعة، وأحلامنا مقدسة، ووطننا بخير!

تموز 1994 صحيفة القدس

حديث المتعلمين... طويل!

هذه اللحظات تشهد أنّك ما تزال تحت ثقل اختبار قاسٍ، ليس بمقدورك أن تهرب منه إلى الظل البعيد! ولا أنْ تقبعَ في حجرة نائية تعيش وحدك كي يكون العذاب سرابًا بالعزلة؛ لأنّك لا تقدر في هذه الساعة أن تعيش لنفسك فترصد من الهواء المتحرك عطرًا زكيًّا تتنشّقه وحدك، وتمنع غيرك من الاقتراب منه!

فلولا المشقة يا صاحبي، ساد الناس كلّهم، ولكنّ الجود يُفْقر والإقدام قتّالُ!

ليس بإمكانك أن تحرك الأشياء فتجعلها تمرّ أمام ناظريك كما تلذّ لها عيناك، أو أن تجعل الأصوات تتشكّلُ في نغمة دافئة تذوب في الحزن، فيخفق لها السمع، فلا يدخل فيه ما يزيدك حزنًا. إني أراك في صراعٍ مع دقات الزمن، الذي يسير على هذه الشاكلة من الشدة والضيق، فلا يبعث في نفسك ضوءًا خافتًا تشعر من خلاله ببقايا حياة لأناس يتحركون.

ولكن مثلك في الناس كثير! قد نفذ إليهم الشقاء بأبشع صوره! تراهم في مكان يسافرون من أرض إلى أرض، ومن بحر إلى بحر، فلا يرون ما سعت إليه أقدامهم، ولا ما طمحت إليه نفوسهم، أو هربت إليه أفكارهم...!

هم كثير يا صاحِ، يُطارَدونَ في وطنهم، كما يطارد الداء العضال راحة الجسم! ويُمنعون من التنقل داخل حجرات البيت الكبير، يطلبون منهم تذكرة الدخول والخروج في كلّ مدننا وقرانا المحتلة...!

حديثٌ طويلٌ لا تستريح إليه البتة، حين تخلو لنفسك، أو عندما تكون مع الناس... وهي مأساة مؤلمة، ترتفع ألسنة لهبها في صميم المتعلمين، سواء الذي لا يزال ملتحقًا بجامعته أو معهده، أم ذاك الذي خرج إلى الواقع فوقف على محطة الانتظار الطويل في سوق العمل!

عقدة طريق المتعلمين أنهم يعيشون في واقع بعيد عن العلم والمنطق! وهم يرون بأعينهم كيف تطوى قدراتهم، ومواهبهم وكفاءاتهم أمام المسؤول، فيبعدها

جانبًا، ويضع مكانها مصلحته الخاصة، أين تكون من هؤلاء! هي في عقله مسألة ربح وخسارة، وكأني به يجلس على بسطة خضار، يبيع لكل مواطن وفق معرفته به، لا معرفته بالخضار! وكأني به ينظر للوطن سوق مضاربة، من يدفع أكثر يكون له!

أقول، هم المتعلمون الذين خرجوا من أنياب الغول إلى المعصرة، وطمحوا أن تتهذب نفوسهم بالآداب، وتغوص عقولهم في المعرفة والخبرات، ليسوقوا الخير والصلاح للأمة. وكي يصنعوا في غيرهم ما خلق الله فيهم من المحبة للخير والعطاء؛ لأنّ المجتمع يقاس بقدر حظّه من المعرفة والثقافة والمتعلمون هم عقول المعرفة وغوّاصو الثقافة، وصنّاع الحضارات...

في كلّ المجتمعات المتحضرة، يحكمُ العلمُ حكمه المميز، ذاك الذي جعلها في مسافة الارتفاع، وجعلنا خلفها أتباع خيال الارتفاع، وصلوا القمر ونكشوا تربته، وحدّقوا في النجوم، كما نحدق في صحن الطعام! وما يزال الواحد منا يتثاقل من بناء بيت صغير لابنه أو لنفسه على الأرض، ولا يصل لأدنى حلم يكون خارج الذات، إلّا بشق الأنفس وألم السنين!

لكنّ المعاناة أبسط بكثير مما تراها يا صاح، وأهونُ من دقّ المسمار في اللوح الخشبي! لأنّ الكلام لا يكلف السامع جهد التفكير، فربما ثقل على الصحافة الأمر، وآلم نفوسهم فظاعة الحقيقة، أكثر من أن يحرك شعرة في رأس مسؤول أو سامع عابر!

هي البساطة في التفكير حين تعتقد أن الألم الذي يصيب غيرك بسيط؛ لأنه أخطأ الطريق إليك، فكأنه عثرة خاصة، أو حادث مرور قضى الله أن يكون له وحده دون غيره، وتظنّ ذلك ببراعتك وحكمتك، وتظنّ وقوعه فيه بجهله وغبائه!

إنّ العمل للوصول إلى العزة والرفعة لن يكون طريقه الخطأ والفساد والفوضى، ولن يمرّ من جراح أرباب العلم ومحبيه، ولا من تعذيب العقول التي شعّ نورها وزاد توهّجًا بالإيمان والفضيلة والعطاء! لن يكون إلّا بعمل الصواب والبدء بانعكاس مشاعر الانتماء لهذا الوطن والدين على الجوارح.

سيعيش المتعلمون زمنًا صعبًا، بعضهم سيترك سلاحه المقدس ويلتحق بركب المنافقين ليجد له مكانًا في سوق العمل، وعندئذ لن يجد نفس المتعلم الذي بداخله منذ بدأ! وبعضهم سيعض على الجمر، ولن يلقي السلاح، وسيقاتل بما تعلم وبما آمن حتى ينتزع حظه انتزاعًا...

وبعد، يا صاحِ، فثق بعزمك، ووعد الله، وابق على حب حاملي هذه الراية، فالطريق صعب، ولكنّ صعب العلا في الصعب والسهل في السهل، فأنت بحاجة لصمت طويل لتعي متعة الكلام، حين لا يكون نفخًا ببوق، أو ضربًا برمل، أو نفخًا برماد، فطريق المتعلمين طويل جدًّا، وشاقٍّ وملتوٍ وصعب، لكنه يجعلك تتنسّم لذة الكفاح وأنت موقن بالنصر!

1995/1/24 صحيفة القدس

في رحيل الشيخ كشك

في السادس من هذا الشهر كانون أول، وفي يوم الجمعة المبارك، شيّع المسلمون أحد دعاتهم الكبار، وواحدًا من علمائهم وخطبائهم الأفذاذ الشيخ عبد الحميد كشك، الذي استجاب الله لدعوته أن يتوفاه ساجدًا. ومن لم يسمع بهذا الرجل المعطاء الذي ملأ صوته الآفاق، واجتمع حوله الملايين، الذين حفظوا أقواله ورددوها في كلّ مجلس، ولم يترك مناسبة دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية وفنية إلّا صدح لسانه فيها، آمرًا بالحقّ والمعروف، ومهاجمًا الباطل ناهيًا عن المنكر!

"وُلد الشيخ عبد الحميد بن عبد العزيز كشك في شبرا خيت بمحافظة البحيرة يوم الجمعة الموافق لــ 10 آذار 1933م، وحفظ القرآن وهو دون العاشرة من عمره، ثم التحق بالمعهد الديني بالإسكندرية، وفي السنة الثانية حصل على تقدير ممتاز، وكذلك في الشهادة الثانوية الأزهرية وكان ترتيبه الأول على الجمهورية، ثم التحق بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر. وكان الأول على الكلية طوال سنوات الدراسة، وكان في أثناء الدراسة الجامعية يقوم مقام الأساتذة بشرح المواد الدراسية في محاضرات عامة للطلاب بتكليف من أساتذته الذين كان الكثير منهم يعرض مادته العلمية عليه قبل شرحها للطلاب، وبخاصة علوم النحو والصرف. بعد ذلك عُيّنَ معيدًا بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر بالقاهرة عام 1957م، ولكنه لم يقُم إلا بإعطاء محاضرة واحدة للطلاب بعدها رغب عن مهنة التدريس في الجامعة، حيث كانت روحه معلقة بالمنابر التي كان يرتقيها منذ الثانية عشرة من عمره، ولا ينسى تلك الخطبة التي ارتقى فيها منبر المسجد في قريته في هذه السن الصغيرة عندما تغيّب خطيب المسجد، وكيف كان شجاعًا فوق مستوى عمره الصغير، وكيف طالب بالمساواة والتراحم بين الناس، بل وكيف طالب بالدواء والكساء لأبناء القرية، الأمر الذي أثار انتباه الناس إليه وجعلهم يلتفون حوله.

بعد تخرجه من كلية أصول الدين، حصل على إجازة التدريس بامتياز، ثم عمل إمامًا وخطيبًا بمسجد الطحان بمنطقة الشرابية بالقاهرة. ثم انتقل إلى مسجد منوفية بالشرابية أيضًا، وفي عام 1962م تولى الإمامة والخطابة بمسجد عين الحياة، بشارع مصر والسودان بمنطقة حدائق القبة بالقاهرة. ذلك المسجد الذي ظل يخطب فيه قرابة عشرين عامًا.

اعتقل عام 1965م وظل بالمعتقل لمدة عامين ونصف، تنقل خلالها بين معتقلات طرة وأبو زعبل والقلعة والسجن الحربي. تعرض للتعذيب رغم أنه كان كفيفًا لا يبصر منذ صغره، ورغم ذلك احتفظ بوظيفته إمامًا لمسجد عين الحياة.

في عام 1972 بدأ يكثف خطبه، ومنذ عام 1976 بدأ الاصطدام بالسلطة وبخاصة بعد معاهدة كامب ديفيد حين اتهم الحكومة بالخيانة للإسلام وأخذ يستعرض صور الفساد في مصر من الناحية الاجتماعية والفنية والحياة العامة. وقد ألقي القبض عليه في عام 1981 مع عدد من المعارضين السياسيين ضمن قرارات سبتمبر الشهيرة للرئيس المصري محمد أنور السادات، وقد أفرج عنه عام 1982 ولم يعد إلى مسجده الذي منع منه، كما منع من الخطابة أو إلقاء الدروس. لقي كشك خلال هذه الاعتقالات عذابًا رهيبًا ترك آثاره على كل جسده رغم إعاقته.

ترك عبد الحميد كشك مائة وثمانية كتب تناول فيها كافة مناهج العمل والتربية الإسلامية، وصفت كتاباته من علماء معاصرين مبسطة لمفاهيم الإسلام، ومراعية لاحتياجات الناس. وكان له كتاب من عشرة مجلدات سماه "في رحاب التفسير" ألفه بعد منعه من الخطابة وقام فيه بتفسير القرآن الكريم كاملًا، وهو تفسير يعرض للجوانب الدعوية في القرآن الكريم.

قبل وفاته وكان يوم جمعة وقبل أن يتنفل قصَ على زوجته وأولاده رؤيا، فقد رأى النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- وعمر بن الخطاب بالمنام يقول له: "سلم على عمر"، فسلم عليه، ثم وقع على الأرض ميتا فغسله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بيديه. فقالت له زوجته: -وهي التي قصت هذه الرؤيا -علمّتنا حديث النبي أنه من رأى رؤيا يكرهها فلا يقصصها. فقال الشيخ كشك: ومن

قال لك أنني أكره هذه الرؤيا والله إنني لأرجو أن يكون الأمر كما كان. ثم ذهب وتوضأ في بيته لصلاة الجمعة وكعادته، بدأ يتنفل بركعات قبل الذهاب إلى المسجد، فدخل الصلاة وصلى ركعة، وفي الركعة الثانية، سجد السجدة الأولى ورفع منها ثم سجد السجدة الثانية وفيها توفي. وكان ذلك يوم الجمعة 25 رجب 1417 هــ الموافق لــ 6 ديسمبر 1996م. وكان يدعو الله من قبل أن يتوفاه ساجدًا فكان له ما أراد". [المصدر: موقع طريق الإسلام].

وبرحيل هذا العالم الجليل تكون الأمة الإسلامية قد فقدت أحد رموزها الأعلام، الذي قدّموا أكثر مما أخذوا، وساروا على درب الإسلام ردحًا طويلًا من الزمان، ولم تفتر لهم عزيمة، أو يكلّ لهم متن، بل ساروا ثابتين مؤيدين وقد زلزلوا الطغاة بهديرهم، وكشفوا المفسدين، وفضحوا سياساتهم، ولم تأخذهم في الله لومة لائم، بل نذروا نفوسهم فداءً لدعوة الإسلام، ودفاعًا عن مُثُلها الغراء، وتعاليمها السمحة...!

أقول، لقد فقد المسلمون مدرسة مُثلى في الانتماء للعقيدة، والإخلاص للدعوة، في وقت نحن نحتاج فيه لأمثال هؤلاء الأعلام، الذين يقفون للباطل في كلّ مرصد، ويزيلون عن أعين الناس الآلام، ويشرحون الصدور، ويوقدون الأمل في النفوس!

هؤلاء الرجال، هم بحقّ قادة العقائد، ترى الرجل منهم أمّة وحده، لا يسمع الناس عنه في مكان إلّا هرعوا إليه ملبّين، وجلسوا بين يديه منصتين في شوق ولهفة، كأنه في قلوبهم ملك، لكن لا يخرج كلامه إلّا من القلب، ولا يقع إلا فيه!

ولعل الذي آسف له، هو أن يرحل هذا العالم الكبير، عن دنيا المسلمين، وإعلامنا العربي والإسلامي يسبح في ماء آخر، كأن هدير حناجر عشرات الألوف لم يصل الآذان! وكأن فاجعة المسلمين لا تهم أولئك السادة الإعلاميين، أو أنّ ألسنتهم عجزت عن وصفها، فولّت إلى سبات عميق!

هذا موقف مؤلم، ما كان لنا أن ننساه! أو نسكت عليه، فليست مطربات اليوم والمطربين بأكثر أهمية من يوم من حياة هذا الرجل! فكيف وقد وهب عمره

لخدمة الإسلام والمسلمين! إعلامنا العربي يبث الأغاني وحفلات الطرب، أما الشيخ كشك "فلا بواكي له" وكأنه ليس من مصر الكنانة! ولا من هذه الأمة الكبيرة؟

إنّ موت العلامة الشيخ كشك، لهو شارة إنذار، في ذاكرة كلّ مسلم غيور، إذ عليه أن يتساءل إن كان هذا الزمان سيجود بمثل هذا الرجل؟ في عقيدته وشخصيته وجرأته وغيّرته!

ما أحوج الأمة إلى تقدير علمائها! وتخليد ذكراهم! فكما حرص أسلافنا المؤرخون، وكما حرصت دور الخلافة في الماضي على تشجيع طلب العلم، وأثابوا العلماء الذين حفظوا لنا تراثنا عبر العصور، علينا أن نمضي في الطريق نفسه، ونعيَ أن الحضارات لا تبنى بإهمال العلماء والمصلحين؛ بل تشع فيهم أولًا ثم تنتشر على الأرض، وتنشر الرفعة والمجد والسعادة.

إنّ المصائب والمحن لا تكون في ذهاب المال والأولاد؛ لكنها تكون أيضًا في موت العظماء من العلماء والقادة والمبدعين، لذا لم تخسر البشرية جمعاء شيئًا ذا بال قدر خسارتها بموت سيد الناس جميعًا سيدنا محمد -عليه الصلاة والسلام-، ثم بموت الصحابة والقادة والدعاة والمصلحين من بعده. أولئك الذين كانوا في حياتهم أمة كاملة، تدبّ على الأرض فتنهى وتأمر وتغير ولا تخشى شيئًا إلّا الله...

رحم الله الشيخ الجليل عبد الحميد كشك، وأسكنه فسيح جناته، وعوّض أمتنا الإسلامية رجالًا مصلحين أتقياء أنقياء مثله...!

صحيفة القدس كانون الأول 1996م.

المطبوعون على الظلم...!

ورد على ألسنة العرب قديمًا، قولهم "أظلمُ من حية"، وأصلُ هذا القول أنّ رجلًا وجَدَ حيّةً، وقد جمدت من البرد، ولم تتحرك، فأدخلها بين ثيابه، ولم يزل الرجل يدفئها حتى تحركت، ونهشته، فقال لها: ويحك! أهذا جزائي؟ فقالت: لا، ولكنه طبعي!

وما قصدتُ من هذه الرواية، الحديث عن الأفاعي المعروفة، قدر ما استوقفني هذا القول، وجعلني أقيس أهمية الطبع في حياة الإنسان، فطالما تستهويك أشياء، وتأخذ منك جلّ الوقت، وأنت تعيش فيها لذة البحث ومتعة الاستقصاء.

لا أريد أن أوقف حركة الناس لأخضعها لقانون جديد! أو أن أجمع أقوالهم وأفعالهم في مختبرات التحليل النفسي، فذلك شأن المختصين بالمرضى! ولكني أعرض عليك النظرة التي قد أكون فيها مصيبًا، وقد أكون فيها مخطئًا، رغم قناعتي أنها للصواب أقرب، وللحقيقة أشدّ اتصالًا؛ إذ إنها من الواقع خرجت، ومن آلامه تفجرت، ومن شدته استحكمت، ومن عمقه ألحّت على الخروج إليك، لتشاركني فيها بالتعزيز أو النفي!

الطبع يا صاح، مصدر السلوك، وأصل الخير والشرّ على السواء، وهو ابن الفطرة، ودعامتها في تحديد الأهواء والغرائز، وقد فطر الله الإنسان على الخير والمحبة، وعرض له ما هو مبسوط في الكون، وترك له حرية أن ينمّي هذه الفطرة، فتقبل على الخير ولا ترضى سواه؛ أو أن يحكّم هواه حيث تحصل لذته ومتعته، فيكون ابن الهوى لا الفطرة الصحيحة! فتراه يركض خلف ما يروي ظمأه، ويلبي هواه، دون اعتبار للآخر! أو دون احترام لعقيدة أو عادة أو تقليد! فهو يعيش بهواه وعاداته وتقاليده، وكأنه مجتمع بحاله، لا يمتّ للمجتمع الذي يعيش فيه بصلة؟

وكثيرًا ما يتمرد الإنسان على طبعه، ثم يعود الرشد إليه فيهتدي بعد ضلال! ولا نزال نعيش صراع الخير والشرّ منذ البدء، إلى ما شاء الله من الزمن! ولكننا

مطالبون بالتماس الخير، والبحث عن منابعه، ومسالكه، وتتبع الذين يرفعون رايته، ويقاتلون في سبيله، من أجل أن نستمرّ بعيش صحيح لا تعب فيه ولا نصب! ومن أجل تثبيت فطرة الدين والصلاح والإعمار، كي نحفظ مسافة البعد عن غريزة الحيوان، التي تسمح له بأكل غيره إن جاع!

ولن أبتعد عنك كثيرًا، فالحال التي نعيشها أصبحت في أسوأ هيئاتها! وهي حال من التردي الاقتصادي، الذي يصيب الناس، ويهوي بهم إلى سنين البؤس والشقاء، وقد أضحت حديث الشارع، وبتنا لا نسمع غير الشكوى والضجر، وكأن السنة التي تمضي لا تبعث إلينا إلا سنة أشدّ وأنكى من أختها التي سلفت!

ومن وسط هذا الحصار والتضييق الذي نعانيه في هذا الوطن، ومن عمق المرارة التي نتجرع غصصها كلّ يوم، يتسلّل المطبوعون على الظلم إلينا، ليزيدوا الكأس مرارة، والحال سوءًا؛ فيتلاعبون بالأسعار، ويصطادون في الجراح أرواح الناس دون أدنى وازع يزجرهم، أو خشية من قانون تكفّ أيديهم عن العبث بحال المواطن!

وكأنهم لا يعيشون إلاّ لأنفسهم، ولا يهمهم لهب المأساة المنبعث في عيون الغلابى والبسطاء، وذاك أنهم ران على قلوبهم، فأصبحوا لا يرون إلا ما يحققون من أرباح هائلة، ويعدّون ذلك توفيقًا من الله، وكأن الشيطان وهو يوسوس لهم بالاستغلال والغش والكذب، يدعوهم إلى جنة ورضوان!

لقد تحولت أيام الأعياد من لحظات تراحم وتعاطف وتسامح في نفوسهم إلى ساعات سباق مع الزمن! كم يربحون؟ كم يكسبون في هذه المناسبة من هذه الجموع التي ربما أقدم كثير منها على الدّيْنِ والاقتراض من البنوك ليلبي حاجات أولاده وأسرته، وينهض بواجباته أمام الأقرباء والجيران!

من المؤلم حقًّا، أن يتحول شعب المعاناة والتضحيات -أو فئة من هذا الشعب- في عشية وضحاها إلى طائفة تتحكم في سعادة الناس، وشقائهم! يقيسون بأطماعهم درجة الضغط، وقدرة الأعصاب على الجلد! من المؤلم حقًّا، أن يكون

الظلم طبعًا راسخًا في بعض النفوس، ونحن في أحوج الساعات إلى العدل والرحمة!
وقد آلمنا جميعًا، ونحن نرى أولئك الذين عميت أبصارهم وقلوبهم، وعملوا سنين طوالًا يغرون الناس ببضاعتهم الفاسدة بمعسول كلامهم، وملمسهم الناعم، وعمدوا إلى بيع السموم للمواطن من حيث لا يدري! شاهدناهم وهم يُجْبَرون على إتلاف بضاعتهم الفاسدة من أدوية، ومواد غذائية، وحلويات، شاهدناهم وهم صاغرون أمام الحقيقة المرة، التي خيّل إليهم أنها لن تقوى على الظهور أبدا، وسيظلون يبيعون هذا الداء، ويجنون الأرباح دون أن يحاسبهم أحدا!

إنّ المواطن حين يدفع الثمن لسلعة ما، من حقّه أن يأخذها سليمة صالحة للاستعمال، حقًّا بحق، ووزنًا بوزن، دون غش أو خداع!
وما حدث ويحدث هنا في مجتمعنا الفلسطيني، أن المواطن يدفع ثمن السلعة، ويسلم أمره إلى أمانة البائع وضميره وتقواه! فإذا تعذر وجود هذه المبادئ في التاجر أو البائع ذهب المواطن ضحية، وسُلِبَ ماله بغير حق! وقد يقول قائل: لماذا لا يدقق المواطن فيما يشتري بالفحص؟ فأقول، سؤال منقوص! لأنّك أيها السائل تفترض أن الأصل في البيع أو التجارة الغش والخداع! فإذا كان الأمر على ما قلت، يصبح لزامًا على المسؤولين ورجال الإفتاء أن يحرموها ما دامت على هذه الشاكلة!

وأمر آخر، أنت تستطيع أن تدقق في سلعة العدس، والشعير، لكن هل بوسعك أن تدقق في الطعام الذي تتناوله في المطاعم؟ أو الماء الذي تشربه مغلفًا؟ أو في الحليب أو الأرز أو سائر المشروبات المحفوظة! هل تستطيع أن تدقق في الدواء الذي تشتريه؟ والحلوى التي تشتهيها؟ ولماذا انعدم الوازع الديني عند هؤلاء؟ ومتى كانت التجارة والأرباح تحصّل بهذه الطريقة! وما الفرق بين الذين يقتلون بالرصاص من المحتلين وهؤلاء الذين يقتلوننا بهذه السموم!

وبعد، فإنك سترجع إليّ لتتيقن أن الشرّ باقٍ بقاء الخير، وأن طباع الناس متشاكلة، منها ما تهذبها المعاناة، ومنها ما تمحوها محوًا! ولكننا مجبرون أن ننتصر لإنسانيتنا، ونتكلم ونتصرف بلغة المنطق والضمير، وما ترتضيه لنا أخلاق الإسلام، لنبقى بعيدين عن الطبع الجاف، الذي هو لغير العاقل والناطق أحرى أن يكون!

أيّار 1996 صحيفة القدس

الإشراف التربوي ودور المدير في المدرسة

"قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: أيّ قرّائك أحبّ إليك! قال الأستاذ الشيخ: هذا الذي يقرأ مخلصًا، وينقد ناصحًا، ويعلن الرأي صريحًا، لا يصانع فيه، ولا يلتوي به. قال الطالب الفتى: ومن لك بالقارئ الذي تجمع له هذه الخصال؟ قال الأستاذ الشيخ: هَبْهُ إحدى المنى التي يقول فيها الشاعر القديم:

مُنىً إنْ تكنْ حقًّا تكنْ أعظم المنى   وإلّا فقد عشنا بها زمنًا رغدًا

وها أنا أعود مرة أخرى بعد انقطاع دام أكثر من سنة؛ لأتحدث في موضوع دقيق يهتم له المجتمع، أو أكثر طبقات المجتمع، أعني بذلك طبقة المعلمين، أولئك الأكثر صبرًا وجهادًا وشقاءً من أي فئة أخرى!

أتحدث عن أوضاعهم بعد أن غابت الأصوات التي تدعو لإنصافهم ماديًّا، وبقي جرحهم ينزف دون أن ينظر أحد من المسؤولين إليه بعين اهتمام ومتابعة.

أترك الحديث عن أوضاع المعلمين المادية، الآن؛ لأني سأعرض لوجه آخر من معاناتهم، وإن كانت لا تقلّ أهمية عنه، سأتحدث عن الإشراف التربوي ودور المدير في المدرسة.

إنّ وزارة التربية والتعليم هي الجهة المسؤولة والمخولة بسنّ القوانين وإصدار التعليمات التي تراها مناسبة وملبية لطموحات شعبنا العظيم، وهي أعلى الهرم في طبقة الموظفين سواء أكانوا في مكاتب التربية أم في المدارس من مديرين ومعلمين. وهذه الوزارة مهمتها متابعة أخبار الموظفين ورسم الخطط المستقبلية وحلّ المشاكل وغير ذلك ما يتصل بالتعليم.

ودور مكاتب التربية في المدن هو دور الوسيط المكلف بمتابعة أوضاع المدارس، من معلمين وطلبة، وقضية الإشراف التربوي هي شأن ترعاه الوزارة وتشرف عليه المكاتب في المدن، وتوضع عادة من أجل مصلحة المعلم والطالب، فيقوم المشرفون بعقد دورات متواصلة منتظمة لتدريب المعلم وإكسابه الخبرات والمهارات اللازمة، وإصدار نشرات تساعده في استخدام المنهاج المدرسي أو حل مشاكل

الطلبة داخل غرفة الدرس، ثم القيام بزيارات منتظمة للمدارس لمتابعة أحوال المعلم وطلابه وما يواجهه من مشاكل.

وتأسيسًا على ما تقدم، يترتب على الوزارة أن تضع من المشرفين من ترى فيهم تميـّزًا في علمه وصدقه وانتمائه ونشاطه، ولديه القدرة على التعامل السلس مع الطبائع المختلفة من جمهور المديرين والمعلمين، ويمتلك شخصية قادرة على إدارة البرامج وإعداد الخطط والنفاذ لقلب المعلم وعقله، ذاك الذي تقع عليه مسؤولية تنفيذ ما استقبل من معلومات ومهارات، فهو الجندي الذي لا يفارق المعركة، فإن نجح في عمله كان النجاح للمشرف ثم لمكاتب التربية ثم للوزارة بعد ذلك... والعكس صحيح!

وما يصدق على المعلم، يوافق المدير أيضًا فحالهما متشابهان متلازمان، فهما كالضابط والجندي، في الميدان يتلقيان الأمر والتدريب كلّ وفق وظيفته، وينفذان وفقًا لهدف واحد وهو النهوض بالتعليم، وتحقيق أقصى غاية ترتجى خلال كلّ عام دراسي.

إنّ المشرف التربوي والمدير والمعلم هم مرسلون لبعضهم ومستقبلون في آنٍ معًا؛ فالمشرف يرسل الخبرات والملاحظات للمعلم ويستقبل منه ما يعسر عليه في أثناء عملية التدريس، فيستمع لمشاكله ويسهم في حلّها.

والمدير يستقبل من مكتب التربية التعليمات الصادرة عن الوزارة ويقوم بتبليغها للمعلم وللطلبة، ويشرف على تنفيذها بنفسه، ويستقبل من المعلم اقتراحاته وما يحتاج من أدوات ووسائل تعينه في عملية التدريس، فيساعده آخذًا بيده لتخطّي ما يواجهه من عقبات.

ويقوم المعلم بعد ذلك بدوره التعليمي المتمثل بتحويل الرموز في الكتب إلى مهارات وممارسات وفعاليات ينفذها الطلبة حفظًا وقراءة وكتابة وسلوكًا؛ لذا فدور المعلم من أخطر الأدوار وأصعبها على أرض الواقع، فكل العيون موجهة إليه؛ من الطلبة وأهلهم ومن المدير والمشرف ومكتب التربية ومن الوزارة أيضًا، هو وحده

الذي يتوقع منه أن يحقق النجاح والانتصار، وما عداه يخطط ويصدر الأوامر ويراقب ثم يحكم...!

وليس من فراغ قال شوقي قديمًا:

قمْ للمعلمِ وفِّهِ التبجيلا   كاد المعلم أن يكون رسولا

ولا يستطيع أحد أن يقلل من الدور الذي يؤديه المعلم على هذا النحو! ولا من المصاعب التي تتحيّف طريقه، فهو مطالب أن يكون ماضي العزم شجاع القلب، مصقول القريحة، عارف بمسؤوليته، عالم بواقعه، سياسي في التعامل مع الطالب والمدير والمشرف، واقتصادي في الوقت، مدبر لا يضيع لحظة هباء، فعمله يقاس بالزمن ولا يقاس بشيء آخر...! هو في مهمة صعبة ودقيقة لا يعيها بجد إلّا من جرّب التعليم وذاق مرارته، وبُحّ صوته، وشُدّت أوتاره، وتضخمت أوداجه، وتهاوت خطواته وهو بين المقاعد أو في الساحات يراقب هذا، ويركض خلف هذا...!

إنّ إنسانًا كالمعلم يجب أن يحاط بالعناية والرعاية والدعم والتأييد كي يبقى قطار العلم يسير باتجاه صحيح، فهل تعي الوزارة كل ما ذكر؟ وهل تتابع ما تقوم به مكاتبها في المدن؟ وهل عملية الإشراف التربوي بوضعها الحالي وتعاليمها السامية تؤدي واجباتها على الوجه الصحيح؟ أم تقف له بالمرصاد، تراقب حركته من بعيد فقط! وما العلاقة القائمة بين المعلم والمدير من جهة وبين المعلم والمشرف من جهة أخرى؟ وهل تلك العلاقة قائمة على الصدق والمصارحة والمشاركة في الهمّ الواحد والهدف الواحد أم هي علاقة رجل التحقيق بالمتهم المسكين؟

وكي نجيب أو نحاول معرفة الإجابة يجدر بوزارتنا الموقرة أن تتبنى هذه الأسئلة أولًا، وتحاول أن تجيب عنها بوسائلها المتعددة، وأنا أعتقد أنها تستطيع ذلك وسوف تقطف ثمارًا جيدة ما كانت لتحلم بها، وستسهم إن فعلتْ في بناء جسور الثقة والمحبة بين جمهور موظفيها، وستجتاز عقبة كبيرة تجثم في طريق نهضة التعليم في فلسطين، وربما في الوطن العربي لو نُظِرَ إلى الأمر من هذه الواجهة!

وكما قال المتنبي قديمًا:

وليس الذي يتبعُ الوبلَ رائدًا　　　كمنْ جاءه في داره رائدُ الوبلِ

إنّ وزارتنا الموقرة مطالبة وهي تحرص كل الحرص على إنجاح دور المعلم أن تجعل حلقة التعليم موصولة بأطرافها بين المشرف والمدير والمعلم؛ لأنّ الذي يحدث ليس هو الذي يكتبه المشرف أو المدير، فهما يزوران المعلم مرة أو مرتين في العام بينما تبقى آلاف الحصص غائبة عن الأنظار لا يعلمها إلاّ الله -عز وجل-.

إنّ سياسة الوزارة التي سنّت وجود تقرير يُقيّم فيه المشرف أداء المعلم وتقرير آخر للمدير هو ظلم بعينه للمعلم، لأن ذلك يعني أن يبقى المعلم مراقبًا طوال العام من المدير حينًا ومن المشرف حينًا آخر في كلّ حركاته حين يحضر وحين يغيب، وحين يكتب وحين لا يكتب، ثم جعلت الحصة التي يحضرها المشرف أو المدير هي مقياس عطاء المعلم، دون الأخذ بالحسبان موضوع الدرس، ووقت الحصة، أو باقي الحصص الأخرى!

وقد وجد بعض المشرفين والمديرين في هذا التقرير وسيلة لإرهاب المعلم، فاصطادوا في الماء العكر، وحكّموا مصالحهم وعلاقاتهم، ونسوا مسؤوليتهم أمام الوزارة وأمام الله أولًا وأخيرًا...!

وأتساءلُ: لماذا لا يكون للمعلم تقرير عن المشرف والمدير أيضًا؟ أو توزع استبانة مطوية يعبئها المعلم عن أداء المشرف والمدير في نهاية كل عام، حتى يشعر الجميع أنه مراقب ومسؤول ومطالب بالعدل والإنصاف.

إنّ نهضة الأمم وبناء الحضارات لا تكون ولا تصنع حين يتساوى العامل والخامل في المجتمع، وحين تمارس سياسة الترقيع وتغليب الأهواء حتى في أصدق المهن وهي التعليم.
ما أحوجنا إلى رجال أمناء مصلحين يستمعون إلى الحق فينتصرون له، وذوي انتماء يغلبون هموم الوطن والمواطن على همومهم الشخصية! وذلك من أجل وطن قوي، وأجيال تجد ما يستحق أن يضحى من أجله...!

1997/10/1

ثم نشرت في دار ناشري للنشر الإلكتروني/الكويت في 2014

عودة لحديث العلم والمتعلمين...!

إني لأعجبُ من الأقلام التي تأتي على كلّ شيء، وتترك ما يتوق له جمهور عريض من الناس! وأعجبُ من الأصوات التي اعتدنا عليها في كلّ شاردة وواردة تصدح هادرة، كيف تخْفتُ وهي تنظر إلى هذه الجموع المثقلة باليأس والإحباط، من بعد الأمل الكبير الذي كانت تحمله بعد أن ابتعد ليل الاحتلال عن مدننا ومؤسساتنا، وأصبحت لأهلنا الكلمة الفصل في أمور التربية والتعليم!

وأعتبُ بعد ذلك على المسؤولين الذين يديرون شؤون الناس كيف لا يلتفتون إلى بناة المجتمع وصنّاع مجده، وحَمَلة راياته، وناشري ثقافته!

أمّا الصمت فهو-أحيانًا- أضرّ من الكلام! إذا كان أمام قضية عميقة تستوجب النظر، والقضاء فيها بقضاء العدل والإنصاف، وكما قال الشاعر:

وإطراقُ طرْفِ العينِ ليس بنافعٍ   إذا كان طرْفُ القلبِ ليس بمطرقِ

إنّ هذه الفئة التي نتحدث عنها اليوم، والتي لم تنلْ الاهتمام حتى هذه اللحظة، وما تزال تعاني ما تعاني من ظلم وإجحاف، هي فئة المعلمين الذي واكبوا بعزيمة ثابتة، ويقين راسخ مسيرة الصبر والمعاناة، وحملوا أكثر ما يطيقون، فاستشهد منهم من استشهد، وأصيب من أصيب، واعتقل بعضهم على يد قوات الاحتلال. وهم في ذلك كباقي المواطنين المناضلين، لكنّ عطاءهم أغزر، ومعاناتهم أشدّ، وجرحهم أنكى!

وكأنّ الشاعر القديم عناهم حين قال:

تركنا لأطراف القنا كلّ شهوةٍ   فليس لنا إلّا بهنّ لِعابُ

أعني بذلك، حين كانت الانتفاضة الأولى تدور رحاها في كل مدينة وقرية ومخيم، وهم كغيرهم يذوقون مرارة الظلم والعذاب ليغرسوا في جيل الغد معاني الصمود والثبات والانتماء والعزة والنصر.

لقد كانت الفرحة كبيرة، حين رأينا عربات الاحتلال تغادر المدن والقرى، وتنسحب من الحواجز التي كانت تخنق حركة المواطن حيثما ذهب، وتعيق

حياته، وتعبثُ بمواعيده وآماله...! ولعلها المرة الأولى التي نشهد فيها انسحابًا ولو لمسافة قصيرة، لكنه كان يؤْذِنُ بمرحلة جديدة، تاق إليها الناس، ورنت إليها العيون. ألا وهي مرحلة البناء والتعمير، وبناء المؤسسات، وكأنّ أنوار الفجر الواعد بدأت ترسل خيوطها على بقاع هذا الوطن.

نقول، إنّ تغيّرًا في مجرى الحياة قد حدث فعلًا، فلم نعد نرى جنود الاحتلال يجوبون الشوارع ويعتدون على المواطنين، ولم نعد نخشى السهر إلى منتصف الليل، أو الخروج وسط المدينة في أية ساعة من الليل أو النهار، وبتنا نرى الأعلام الفلسطينية التي كانت محرّمة علينا، خفّاقة فوق المدارس والمؤسسات وفي الأسواق والمنازل. أصبحنا نشعر بشيء من الأمن، نهارًا وليلًا. لكنّ التغير الذي حصل على حياتنا لم يكن التغير المطلوب، الذي غيّر بعض مظاهر حياة الناس؛ فكل تغيّر في الشكل لا بدّ أن يسبقه تغيّر في الجوهر، وبخاصة بعد مرور عامين على هذا الانسحاب، وتدفق مئات الملايين من الدولارات على سلطتنا الوطنية.

هناك قطاعات كثيرة في المجتمع الفلسطيني عانت المرّ زمن الاحتلال، ولم يلتفت إليها أحد بعد انسحابه، فكأن شيئًا لم يتغير في حياتها، ولعل أهمها قطاع التعليم، الذي غمضت عنه العيون، وصُمّت عنه الآذان، وبقي يكتوي بناره، وتذهب آهاته هباءً منثورًا، وكأنه ليس جزءًا من هذا الشعب!

لا نريد من هذا الحديث أن نقول إنّ الفئات التي أُنصفت قد أخذت أكثر من حقها، لكننا نقول إنّ الفئات التي هُمّشتْ انتقصت حقوقها، وظلمت مرتين، وآنَ لها أن تُنصفَ، وتأخذ مكانتها التي تليق بمكانة العلم والعلماء في سائر المجتمعات!

ليس المطلوب من أجل إنصاف هذه الفئة من الموظفين أن تُشكَّل لجانٌ لمدة تزيد عن سنة، ثم ترفع توصيات، لا يلتفت إليها أحد، فذلك قد يحصل حين يكون في الأمر لبسٌ وشكٌّ، أمّا قضية المعلمين فهي فوق الشك واللبس، يعرفها أصغر مواطن في هذا الوطن، إذ ما يزال يعيش وفق قوانين الاحتلال الموضوعة من قرابة

ثلاثين عامًا! إذن، فالمطلوب هو نصرة المعلمين، والعمل الجاد على تحسين مستوى حياته بأسرع ما يمكن!

إنّ الذي يمعن في معاناة المعلمين بحثًا ودراسة، ليلمح بأمّ عينيه الفرق الشاسع بين حياة الناس الصعبة وغلائها المتراكم، وما يتقاضاه هذا الموظف البسيط! وأنت لا تصدق حين تسمعُ أنّ أكثر المعلمين لا يستطيعون أن يواكبوا متطلبات الحياة والأسرة أكثر من أسبوعين من أخذهم لرواتبهم؛ حتى قيل إنّ بعض خطباء إحدى مدننا أجاز التصدق على بعض المعلمين، الذين لا يجدون دخلًا ثانيًا يعينهم على متطلبات الحياة ومسؤولياتها! هذا كي نعلم الوضع السيء الذي وصل إليه مربي الأجيال في وطننا! وكيف لنا أن نطلب منه أن يبدع وهو لا يستطيع سدّ حاجاته اليومية البسيطة! أو أن يبني، ووضعه الاقتصادي بائس في انهدام!

إنّ العناية والاهتمام بالعلم وتربية الأجيال وهما أمران مطلوبان في المجتمعات لا يكونان ببناء المدارس، وتحسين أنظمة الدراسة فقط؛ بل هما بحاجة لكوادر تحمل الهمة والعزيمة والأمل الكبير تلك التي لا يحققها إلّا التحسن الاقتصادي، والشعور بالراحة النفسية. فحين يتحقق ذلك، يكون تحقق النجاح والازدهار أثرين طبيعيين لا بدّ من وجودهما.

نقول، لا بدّ من أجل أن يكون البناء شاملًا وحقيقيًّا، من مراجعة حساباتنا جيدًا، وتحديد أولوياتنا، ثم ترتيبها ترتيبًا لا يظلم فيه قطاع من قطاعات المجتمع، فلا يمكن للشجر أن يؤتي ثمارًا طيبة وهو يسقى بماء نزر! فحاجتنا للعلم هي حاجتنا للمعلم، وحاجتنا للمعلم هي حاجتنا لبناء أسَرٍ واعية، مثقفة، ولبناء مجتمع سليم يسعى نحو التطور والازدهار بخطىً ثابتة. لذا يصبح دعمنا للمعلم هو دعم للمجتمع في علمه وثقافته ووعيه.

ما أحوجنا إلى إعطاء هذا المناضل البطل كل عناية واهتمام! وتقديم كل ما يلزمه من دفق معنوي ومادي، يُحسِّنُ به عيشه، فيصفو به عقله وقلبه كي يكون مُعدًّا بشكل جيد للعطاء والتضحية! فطريق الدولة المستقلة والحرية

والسيادة والكرامة لن تمرّ بهضم حقوق هذا القطاع، وإهماله وتهميشه، فعلى عاتقه يقوم نصف المجتمع بل أكثر من النصف من أبنائنا وبناتنا ممن يتلقون العلم في محافظات الوطن. وهو بحجمه الكبير يعيل آلاف الأسر الفلسطينية التي إن أنصفناها فقد أنصفنا العلم، وإن تركناها في أسر البؤس واليأس فقد أهنّا العلم!

نحن بحاجة لدعم هذا الجندي البطل الصامد الذي عانى ما عانى زمن الاحتلال، وانتظر بفارغ الصبر زواله، وبزوغ قيادة وطنية شريفة تنصفه، وذلك حتى يبقى العلم مقدسًا لدى الأجيال، وطريقًا من الجدّ والمثابرة، وهدفًا ساميًا لا يقوم التقدم والأمن والازدهار إلّا به، ولا تتحقق دونه الأمنيات...!

صحيفة القدس، شباط 1997م.

بعد أربعين يومًا على رحيله

عز الدين إسماعيل... الأديب العالم الناقد

قليل من الذين درسوا اللغة العربية وآدابها في الوطن العربي لا يعرفون الأستاذ الدكتور عز الدين إسماعيل، أستاذ الأدب والنقد في جامعة عين شمس بمصر. وكثير جدًّا هم الذين تلقوا العلم على يديه منذ أواخر الخمسينيات حتى قبل وفاته بشهر ونصف من مختلف البلدان العربية.

ولقد رحل هذا العالم الكبير بصمت، وطوى الزمن جسده، وأبقى ذكراه في كل مجلس يذكر فيه الأدب والنقد والإبداع. حاله في ذلك حال العلماء والأدباء من قبل، كالرافعي والعقاد وطه حسين وغيرهم من الذين أنجبتهم مصر الكنانة، وأفاء عليهم النيل برقته وعذوبته، فنقشوا بأقلامهم محبة العلم، وتوّجوا بلدهم وأمتهم بخير كثير لا يعرفه إلّا واعٍ، ولا ينكره إلّا جاحد أو مغرور... وقديمًا قال الشاعر:

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا   وآفته من الفهم السقيـمِ
ولكــــنْ تأخُذُ الآذان منـــــه   على قدر القرائح والعُلومِ

أجل، قد رحل هذا العالم الذي اشتغل الناس بعلمه وأدبه زمنًا طويلًا، وأفادوا من مؤلفاته وترجماته ودواوينه وبحوثه، غير أن الأمّة التي انتمى إليها ومدّها بعلمه خمسين عامًا، لم تقل في رحيله إلّا القليل، ولم تلتفت إليه لا بدموعها ولا بمدادها، وهذا ما يشير إلى مرض خطيـــر أصبحنا نعانيه من حيث لا ندري، لكنه ينعكس في سلوكنا، ويظهر في جوارحنا؛ مرضٌ يفتّ في العضد، يعبّـــر عن تناقض صارخ بين طبيعة الحياة التـــي نحياها وما نمارسه من أفعال...! وأيّ أمة هذه التي لا تكرم علماءها، وهي التي تقتات على بنات أفكارهم في حياتها؟ أمة لاهية قلوبها، مترفة، لا تعرف من الجمل إلّا السنام فقط؟

إنّ من العجيب أن تلبس جامعات مصر ثوب الحداد، وتغرق الصحف ووسائل الإعلام في الحديث عن عارضات الأزياء، ومباريات كرة القدم، وأخبار الفنانين والمطربين، وذلك كل يوم، ولم أسمع أو أقرأ ذكرًا لرحيل هذا العالم الكبيــر إلّا في قليل من الصحف والمنتديات العربية...!

وبيننا لو رعيْتم ذاك معرفةٌ إنّ المعارف في أهل النُّهى ذِمَمُ

ولد الراحل عز الدين إسماعيل في 29/1/ 1929 في القاهرة، وحصل على درجة الليسانس في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة القاهرة 1951. ثم حصل على الماجستير في الآداب في جامعة عين شمس 1954، ثم الدكتوراه في الآداب من قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة عين شمس 1959.

بدأ معيدًا بقسم اللغة العربية، ثم عُيّنَ أستاذًا للأدب العربي بجامعة عين شمس، ثم عميدًا لكلية الآداب ومسؤولًا عن شؤون الدراسات العليا والبحوث ثم نائبًا لرئيس الجامعة. وقبل ذلك عمل أستاذًا في عدد من الجامعات العربية، في السودان والسعودية والمغرب. وكان يحرص على إقامة مؤتمر دوري للنقد الأدبي برعاية جامعة عين شمس، وأقام أربع دورات كان آخرها المؤتمر الذي انتهت فعالياته منذ أشهر تحت عنوان «البلاغة والدراسات البلاغية».

وشغل منصب رئيس مجلس إدارة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ورئيس تحرير مجلة فصول للنقد الأدبي التي أنشأها عام 1980، وعضوًا في مجلس أمناء مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، ومحكّمًا في عدد من المسابقات الأدبية والنقدية العربية الكبرى مثل جائزة مؤسسة العويس بالإمارات، ورئيسًا لجمعية النقد الأدبي بالقاهرة وحاز عدة جوائز من أهمها جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي.

أسس (الجمعية المصرية للنقد الأدبي) عام 1988، التي كانت امتدادًا (للجمعية الأدبية المصرية) التي تأسست عام1952، وانضم إليها آنذاك وهو شاب ،ومن أبرز أعضائها: فاروق خورشيد، وصلاح عبد الصبور، وعبد الرحمن فهمي، وأحمد كمال زكي، وعبد الغفار مكاوي، وحسين نصار.

بدأت مشاركته في الحركة الأدبية بكتابة المقالات الأدبية عام1948 في مجلات الثقافة والأزهر والآداب البيروتية والمسرح والفنون والعربي وغير ذلك من مجلات.

كان عز الدين إسماعيل شاعرًا مبدعًا، بدأ بكتابة الشعر في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، ثم أخذه النقد من الشعر، فقد كتب مسرحية شعرية هي (محاكمة رجل مجهول) و (أوبرا السلطان الحائر) المأخوذة من مسرحية توفيق الحكيم (السلطان الحائر) وديوان (دمعة للأسى... دمعة للفرح) عام2000، أما ديوانه الأخير بعنوان (هوامش في القلب) فقد صدر يوم وفاته 2007/2/1 دون أن يراه.

ومنذ دخوله الساحة الأدبية أخذ يتحول إلى مؤسسة متكاملة، ظهرت بوادرها في أثناء دراسته للماجستير، حيث فاجأ المجتمع الأدبي بكتابه الرائد (الأدب وفنونه) الذي أثار ضجة كبيرة عند صدوره عام1954، ثم كتابه (الأسس الجمالية في النقد العربي). ثم توالت مؤلفاته بعد ذلك فصدر له كتاب (الشعر العربي المعاصر: "قضاياه وظواهره الفنية"، و(كيف تقرأ النص العربي)، و(المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي)، و(التراث الشعبي العربي في المعاجم اللغوية: دراسة استطلاعية)، و (حركة المعنى في شعر المتنبي بين السلب والإيجاب)، و(المكونات الأولى للثقافة العربية)، و(قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر دراسة مقارنة)، و(الشعر العربي المعاصر في اليمن)، و(الشعر القومي في السودان).

ومن روائعه (الفن والإنسان) وله مشاركاته في ترجمة بعض الكتب الأجنبية مثل: كتاب (نظرية التلقي) لروبرت هولب، وترجمة أحدث النظريات الأدبية ككتابي: (مقدمة في نظرية الخطاب) لديان مكدونيل، و(فردينان دي سوسير) لجونثانكلر.

وتعدّ آثاره هذه مراجع أدبية ونقدية لجل الأساتذة والطلاب في جامعات الوطن العربي، وبخاصة في قسم اللغة العربية، وستبقى كذلك حتى يرث الله الأرض وما عليها.

رحل عز الدين إسماعيل، وقد أسس لمدرسة نقدية اطلعت على الفكر النقدي الغربي، وجعلت من الموضوعية والجدية أساسًا في البحث والنقد، وحين أصدر عز الدين إسماعيل مجلة "فصول" في أكتوبر عام 1980 هو وصديقه الشاعر صلاح عبد الصبور، صدّرَ عددها الأول ببيان ثقافي ونقدي شديد الأهمية، أعاد فيه الاعتبار لقيم العقلانية والاستنارة في التعامل مع النص الأدبي. وقد قال عنها: "هذه المجلة لا تعرف المسلَّمات في أي لون من ألوان الثقافة، وتؤمن بالمنهج العلمي، لذلك لا تحصر نفسها في مذهب أو اتجاه فكري بذاته، بل تفتح الباب لكل دراسة وكل فكر يلتزم بالجدية والموضوعية، وحين نصدر هذه المجلة فإننا نصدرها مبـرئين من مركبين أساسيين، ظلّا يؤثران سلبا على الحركة الأدبية والثقافة بعامة في وطننا العربي، أولهما: نظرة التقديس للتـراث، وثانيهما: شعور الاستصغار أمام الثقافة الغربية".

آمن عز الدين إسماعيل بأن الأدب نتاج عصره، وأنه يستقطر روح هذا العصر، معبـّرًا عن حقائقه وشخصيته الخاصة عبـر مستويات من الوعي الأعمق والأعلى. لذلك كان يرى دائمًا ضرورة ربط الأدب بعصره الذي كتب فيه، وعدم النظر إلى النتاج الأدبي بمعزل عنه. وقد عبر عن كل هذا في كتابه "التفسير النفسي للأدب".

عرف عنه الكبرياء والاعتداد بالنفس، فوصفه بعض الدارسين بالفظّ غليظ القلب، ولم يكن يدافع عن شيء غيـر العلم، وآمن بضرورة إعادة قراءة التـراث العربي وكشف ما به من أسرار وقيم جمالية، والنظر إليه نظرة موضوعية، وقد اتهمه كثيـر من الباحثين بالإفراط بالدعوة للحداثة، ووصفه آخرون بالاعتدال، ولكنهم-على ما بينهم من خلف – أجمعوا على سعة ثقافته واطلاعه، وعدّوه عَلَمًا من أعلام الحركة الأدبية والنقدية في الوطن العربي.

والحق أنه كان لي شرف اللقاء به في جامعة عين شمس عام 2003م حين كان رئيس اللجنة التي ناقشت خطتي في برنامج الدكتوراه، إذ شغل منصب رئيس قسم الدراسات الأدبية واللغوية في معهد البحوث والدراسات التابع للجامعة العربية.

وقد أفدت من نظراته العميقة كثيـرًا في تعديل خطتي، ثم حضرت له عددًا من المناقشات للرسائل العلمية في مقر المعهد وفي جامعة عين شمس، وحضرت إحدى ندواته في جمعية محبي الفنون، تلك التي تعقد لقاءتها كل شهر، ويستمع الحضور إلى إلقاء بحث أو إلى ملخصٍ لترجمة كتاب، أو مسألة من مسائل الأدب والنقد، ومن أعضائها الأستاذان صلاح فضل وسعيد بحيري.

رحل عزّ الدين وعمره ثمانٍ وسبعون سنة، كانت حافلة بالعطاء والخيـر الكثير لبلده مصر ولأمته العربية الإسلامية، رحل فجأة دون مقدمات، وأسلم روحه في مساء الخميس 1/2/2007م قبل منتصف الليل بقليل... وشيعته ألوف المصريين وغيرهم من البلدان العربية إلى مثواه الأخير... رحل، لكنّ علمه باقٍ، ومآثره ستخلّده ما بقي الدهر، وكما قال الشاعر:

وما من كاتبٍ إلّا سيـفنى ويُبقي الدهرُ ما كتبتْ يداه
فلا تكتبْ بكفّك غيرَ شيءٍ يسرّك في القيامة أن تراهُ

2007/3/22 صحيفة القدس

ثقافتنا اليوم والأخلاق...!

الحق أني لم أكتب مقالًا منذ ثلاث سنوات للنشر، منذ مقالتي عن الراحل الكبير والناقد الفذّ عز الدين إسماعيل -رحمه الله-؛ وذلك لانشغالي في أمور علمية وأكاديمية تملك عليّ وقتي جُلّه.

ولكني الآن كغيـري من المهتمين بقضايا المجتمع، ثقافته وأخلاقه، المراقبين للظواهر التي تطفو على سطحه، ألحظُ ظاهرة تتسع دائرتها مع الزمن، ويزداد حجمها مع تكاثر الناس، وتعمق جراحها، وينتشر نتنها مع الريح، ويكبـر هولها في العقول والصدور... ظاهرة لا أقول يمارسها البسطاء في العيش والتفكيـر، أو الغارقون في الجهل بحجة هذا نصيبهم من العلم والوعي؛ بل الذين إن أردتَ أن تبحث لهم عن وصف، قلتَ هم النخبة، أو هم الصفوة، حاملو أمانات العلم والمعرفة، الرافلون بثياب الدعة والهيبة والوقار... الذين يتقلدون مراكز هي حياة الناس، وشريان المجتمع، وقلبه النابض الدّال على الوجود، أتعلم من هم؟ أم ما تزال بحاجة إلى إبانة؟ إنهم المتعلمون المثقفون. أو الذين يدّعون الثقافة والعلم، وليس لهم من الأخلاق إلا وجعها أو حسرتها. وتراهم في كلّ حين يجادلون ويثرثرون، وما أكثر جدالهم! وما أكثر ثرثرتهم...!

إنّ الثقافة أوسع من أن نقيّدها في كلمات قليلة؛ هي في أصلها الحذق بالأمور، والمعرفة والاطلاع، والاستقامة، والوعي بما حولك من أشياء، وثقّفتُ الرمح قوّمته وجعلته مستقيمًا من الاعوجاج، ونظيفًا من النتوءات والعُقَد؛ لذا سموه بالمثقّف والرماح بالمثقّفة، وربما كان لتسمية الرجل اليوم بالمثقف علاقة دلالية بالرمح المثقّف، وهي علاقة مجازية، فكأن الرجل حين يتعلم بالقراءة والاستماع والمجالسة والمشاهدة، ويفيد مما يتعلم، يثقِّفُ عقله وسلوكه، فيعالج ما فيه من جهل، ويداوي ما فيه من نقص، ثم يستقيم تفكيره وسلوكه بتثقفه أو بثقافته...

وهكذا، فالثقافة لا تنفصل في حال من الأحوال عن السلوك، الذي هو غالبًا صورة لما يشير به العقل، والسلوك عند الممارسة وبمضي الوقت يصبح جزءًا من الأخلاق التي هي مكتسبة في الأغلب، وقابلة للتعديل مع الأيام.
والأصل في المثقف أن يكتسب أخلاقًا مميزة على قدر ثقافته؛ لأنه يملك دربة ومراسًا زيادة عن غيره، وليس المثقف مثقفًا في شيء إذا لم يستطع أن يغيّر في سلوكه، اللهم إلّا إذا كانت ثقافته ساقطة تتشاجر وعادات الناس وطبائعهم، فتكون عندئذ كالعملة القديمة التي يسمع بها الناس ولا يتعاملون بها أو يعترفون لها بقيمة في حياتهم الحاضرة، لذا فالثقافة كما يقول د. كمال الحمصي: "سلوك بوصلته الأخلاق" وهو قول صائب وصحيح.
إنّ الأصل في الثقافة أن تعزز الأخلاق المحمودة التي هي رأس مال المجتمع، وكابح حركته المتهورة، ومانع طيشه، وآسرُ شرّه، وحافظ عقله وقلبه ومعتقده، ومنظم علاقته بغيره. وقد كان عنوان دعوة الإسلام القول المأثور عن النبي –عليه الصلاة والسلام-: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".
العلم مجموعة الحقائق والنظريات التي توصل إليها العقل البشري، وتلك العلوم التي إنْ درس الإنسان بعضها حصل على شهادة ما، تؤهله للعمل، كالمدرس أو المهندس أو الطبيب... كلّ في مجال تخصصه... أما الثقافة فهي أوسع من ذلك بكثير، هي تاريخ أمة من الأمم وآدابها ومعتقدها وعاداتها وتقاليدها وذوقها وطريقة فهمها للأمور، ويدخل في ذلك الأخلاق التي تميّز أمّة ما عن سائر الأمم... فأخلاقنا نحن المسلمين في بلاد العرب تختلف عن أخلاق اليابانيين أو الصينيين أو الفرنسيين، لذا فالثقافة جزء من الهُوية القومية لأمة ما، ونقول على سبيل المثال، إن اليابان بعد الحرب العالمية الثانية أرادت اللحاق بالغرب، دون أن يمسّ ذلك ثقافتها، فاطلعت على علومه ومعارفه وسرّ تقدمه، واستطاعت اليوم أن تكون منافسًا حقيقيًّا له في جلّ الصناعات، ولكنّ ذلك لم يكن على حساب ثقافتها التي بقيت حيّة نشطة، لم يحدْ عن دربها أحد، وما ذاك إلّا لأنها أمة تحترم تاريخها، وآدابها وعاداتها وذوقها. وفي المقابل نجد أن تركيا اطلعت

على الغرب فأخذت عنه كل حَسَنٍ وقبيح، ولم تأبه بثقافتها التي تهاوت أمام ثقافة الغرب التي غزتها في عقر دارها، فأصبحْتَ لا تفرق بين تركي وغربي لا في الهيئة ولا في الأفكار، اللهم إلّا قليل ممن كظموا غيظهم، وأغلقوا النوافذ على أنفسهم فعاشوا مع ثقافتهم القديمة في قلق وضجر...!

لكني، ويشهد الله أني لم أقصد أن أحدّثك عن الثقافة في اليابان ولا في تركيا، لأني ما أزال قلقٌ، على تلك الفئة التي تعيش معنا في ضيق هذا الوطن، تلك التي حدّثتك عنها في البدء، وهي التي تحمل الدرجات العلمية العالية، وتصف نفسها، وتوصفُ من غيرها بالمثقفة، وهي بحقّ معاولُ تهدم من حيث تدري أو لا تدري...! ألم أتفق معك منذ البدء أن العلم والثقافة مفهومان يحملان دلالات مميزة؟ ويجوز أن يتوحدّا، فيعطيا وجهًا مشرقًا مورقًا لهذه الأمة. ويجوز أن يشتبكا فيصطرعا، فيقتل الواحدُ الآخر؛ ليأخذ المنتصرُ سمة أخرى تبعده عن لون مجتمعه، وتفصله عن روح ثقافته.

الأخلاق يا صاحِ، هي حديقة الثقافة الواسعة والغنّاء، وجنّة الأرض، وطريق السماء، وهي العظْمُ الذي من دونه لا تتحرك الثقافة على قدمين وبيدين، ولا تجدد هواءً، ولا تشمّ حياةً، أم أنّك تستطيع أن تتخيل ثقافة من غير أخلاق تُمَثِّلها، وسلوك يزيّنها، وذوق يهذّبها...؟ أنا لا أستطيع أن أراهما إلّا أفكارًا تدبّ على الأرض، ولا أستطيعُ أن أفصلَ بينهما؛ لأني سأطالبُ بعدُ بالفصل بين الشمس والحرارة، والثلج والبرودة، واللحم والعظم... وذاك ما لا أستطيع له سبيلًا...!

وأظنك توافقني بعد هذا كله على أنّ الإنسان لا يعيش بمعزل عن غيـره من الناس، فهو في أسرته فرد من مجموع، وأسرته جزء من عائلة، وعائلته فرع من قبيلة أو عشيرة... ومجموع ذلك يجعله كيانًا من كيانات مجتمعه الواسع الذي يتألف منه ويتآلف معه، ويشتمل عليه ويشمله بخيـره العام. فهل يستطيع هذا الفرد بعد هذا كله إلّا أن يكون في مضمونه غصنًا غريبًا عن شجرته التي تفرع

منه؟ هل يستطيع أن يتمرد على قانون الطبيعة الذي خلقه خالق الكون؟ قد تجد على أغصان شجرة البرتقال أحيانًا حبة تختلف في شكلها وحجمها، لكنّك لا تستطيع أن تعثـر على فرق واحد في الطعم بينها وبين سائر ثمار الشجرة؟ وكذا الفرد في مجموع، فقد يختلف في لونه وشكله وحجمه، لكن طباعه وعاداته ستبقى تشير إلى تلك الشجرة التي فرُعَ منها...!

... أنا يا صاحبي لم أقرأ يومًا أو أسمع أن الأخلاق تختلف مع الثقافة! ولم أتخيل أن الذين منّ الله عليهم بسعة في العلم فحملوا الدرجات العالية نقص قدرهم حين تزينوا بالأخلاق، وساروا على الأرض ملائكة، ورحموا صغيرهم وأجلوا كبيرهم! أو قلّت مهابتهم، وذاب وقارهم حين يرحمون المساكين، ويحسنون إلى الفقراء، ومدّوا يد العون للغلابى والمحرومين! ولا أعلم أن العلم كان يومًا ضد الصدق والوفاء والأمانة والتواضع والنصيحة والمحبة إلّا في هذا العصر...! ألا يحزنك أن يكون كلّ ذلك حاصل من حولك؟ ألا يقلقك أن ترى جزءًا من هذا النفر من المتعلمين الكبار، قد أشاح وجهه عن سماع الحقيقة؟ وبدا كالطاووس يصول ويجول مظهرًا الزهو والخيلاء على من يراهم حوله عبيدًا هو سيدهم! لا يسمع لناصح، ولا ينصت لمتكلم، يريدك أن تبقى أذنًا صاغية لمغامراته وآماله، يظن الدنيا قد خلقها الله مع أنسها وجنّها لخدمته وطاعته، ولا يتورع عن الإساءة لوالديه، فما ظنك بأصدقائه ومجالسيه؟ ما ظنك بعامة الناس؟ ورحم الله خليفة المسلمين أبا الحسن علي حين قال: "الشريف إذا نودي تواضع، والوضيع إذا نودي تكبر...".

وصنف آخر، يسرق العلم من أصحابه ليقال عالم جهبذ، ويحلف الأيّمان كاذبًا وهو ألدّ الخصام. ويقتحم الكتب والرسائل فيأخذ ما يشاء ويغيب ما شاء الله له أن يغيب ويظهر بعد ذلك وقد نشرت باسمه المؤلفات ليبيعها في سوق البؤساء بثمن غير بخس... وصنف عجيب غريب لا يتقن إلّا الرياء ليصل إلى مقاصده الشخصية، رياء متقن مغلَّفٌ بالكبرياء والعناد والمفاخرة، لا يظهره إلّا في

مقامات تستحق أن يظهر، فإن جالسته، قلتَ من قال أن عهد الأنبياء والصالحين ولّى؟ فهذا نبي لا يعرفه الناس، وصالح لا يحبّ المدح ولا يعشق الثناء، وإذا تولى في الأرض، وهيأ له الحظّ موقفًا ما رأيته شيطانًا ملعونًا، لم تلامسْ حياة الأنبياء قلبه أبدًا، هذا إن كان له قلب يتسع لمحبة واحد من خلق الله! وصنف آخر اتخذ من العلم بضاعة للتجارة، فهو لا يعرف منها إلّا جمع المال وشراء العقارات، وإن تطلب روحه أهونُ عليه من أن تطلب منه أن يساعد محتاجًا أو يقلّ عثـرة فقيـر، حتى لو كان هذا المحتاج وهذا الفقير أقرب الناس إليه...! وصنف آخر وآخر وأصناف بعدها كثيـر لن أحدثك عنها، لأنك بعد اليوم ستتعلم كيف تجعل عينيك تنقدان الرجال كما تنقد الدرهم الزائف، وستتعلم كيف تميز بين أنواع الناس كما تمايز عند الذوق الحلوى، وغيرها من الأطعمة.

وبعد، ألا يحزنك أن يكون ما قلته موجودًا ورائجًا بين المتعلمين والمثقفين، الذين لا همّ لهم إلّا مراقبة بعضهم، مراقبة الحاسد الحاقد... أو مراقبة الصائد لفريسته؟ أتعلمُ يا صاحبي أن أكثر طائفة يحصل بينها التناجش والتباغض والحسد والاتهام والمراقبة هي الفئة التي يعلق جمهور الناس عليها آماله وأحلامه، ويعتقدُ أنها هي التي ستقدم لنا الحلّ والعلاج، وهي التي تبني ولا تهدم، وهي التي تعمل الخير ليلًا نهارًا، وتنشر العدل وتنصف المظلومين... هي جزء من طبقة المثقفين من المتعلمين، تعال واقضِ جزءًا من وقتك معها وسترى أين وصل الحلّ والعلاج؟ وسترى من الذي يبني ويهدم؟ ومن الذي يعمل الخير؟ ومن الذي ينصف المظلومين وينشر العدل؟ ستجد أنها فئة بسيطة قليلة العدد، ضاعت أصواتها وتضيع هباء منثورًا، ولا يلتفت لها أحد؟

أتستطيع بعد اليوم أن تقنعني أن هناك علاقة بين الثقافة والأخلاق؟ وأن هناك قيمة وروعة لبيتي شوقي حين قال:

وإنما الأمم بالأخلاق ما بقيتْ فإنْ همو ذهبتْ أخلاقهم ذهبوا

وقوله:

صلاحُ أمركَ للأخلاق مرجعُهُ فقوّمْ النفسَ بالأخلاقِ تستقمِ

إن العلم، أقصد الثقافة، بل الأخلاق، أليست كلها ألفاظ تحمل دلالات متداخلة ومتقاربة في المعنى العميق... كلها أصبحت نظريات تنام في بطون الكتب والمجلات، فلا توقظها...! فهي لا تحبّ أن تفتح عينيها على أصحاب لها دفنوها ولم يقيموا لها مأتمًا... يليق بقيمها!

أعلمُ إنك ستقول إني سوداوي، أنظُرُ بعيني أبي العلاء المعري المظلمتين، لكنك لا تعلم أني أترحم عليه كثيرًا، وبخاصة حين أذكر قوله:

وقد عَدِمَ التيقّنُ في زمانٍ حصلنا من حِجاهُ على التّظنّي

2010/5/14 صحيفة القدس،

ودارناشري للنشر الإلكتروني، ورابطة أدباء الشام

الزير سالم وحال العرب والمسلمين...!

شاهد الناس كثيــرًا مسلسل الزير سالم أبي ليلى المهلهل، وما تزال بعض القنوات الفضائية تعرضه بين حين وآخر، ذاك المسلسل الذي قام بتمثيله ممثلون سوريون بارعون. وعلى الرغم من أنّ القصة التي يعرض لها المسلسل شعبية معروفة في أوساط المثقفين والعامة، غير أن عرضها منذ الانتفاضة الفلسطينية الثانية وحتى زمن الثورات العربية يحمل في طياته دلالات كثيرة، وعبر نستلهمها في الصراع العربي مع إسرائيل، وصراعنا مع أنفسنا من وجهة أخرى.

إنّ قصة الزير سالم ليست أسطورة من محض الخيال، وضعتْ من أجل التسلية؛ بل هي قصة حقيقية تحدّث عنها المؤرخون، وثبتت أشعارها في كتب الأدب، وفي الشواهد النحوية التي اعتمد عليها نحاة العصر العباسي. لكن أصاب القصة ما أصاب قصة عنترة بن شداد، وأبي زيد الهلالي، وقصص الشعراء العذريين من الزيادة والتحريف والخلط والتكرار، أما الزير سالم فهو عدي بن ربيعة من قبيلة تغلب ابن وائل بن قاسط من ولد ربيعة بن نزار بن معدّ بن عدنان، وهو أخو الفارس المغوار وائل بن ربيعة الملقب بكليب الذي قتله جساس بن مرة بن ذهل من بكر بن وائل بن قاسط من ولد ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. ولُقّب بالزير لكثرة مجالسته النساء، ولُقّب بالمُهَلهِل لأنه أول من أرقّ الشعر وقصّده في بكاء أخيه كليب، وكان الشعر قبله مقطوعات قصيرة وأبيات، فلما قُتل كليب رثاه أخوه الزير بقصائد طويلة حزينة رائعة منها التي مطلعها:

أهاجَ قذاءَ عيني الادّكارُ هدوءًا فالدموع لها انحــدارُ
دعوْتُك يا كليبُ فلمْ تجبني وكيف يجيبني البلدُ القِفارُ
أجبني يا كليبُ خلاك ذمٌّ فقد فُجِعــتْ بفارسها نزارُ
خذْ العهدَ الأكيدَ عليّ عمري بتركي كلّ ما حـوَتِ الديــارُ
وهجري الغانياتِ وشربَ كأسٍ ولبســـي جبّةً لا تُستعارُ

ولستُ بخالع درعي وسيـــــــفي إلى أنْ يخـــلعَ الليلَ النهارُ

(ينظر: ديوان المهلهل ص 31 شرح وتقديم طلال حرب، الدار العالمية د. ت)

وقد اعتمد الذين كتبوا المسلسل على الحكاية الشعبية وعلى ما ورد في كتب القدماء ككتاب الأغاني للأصفهاني وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي والكامل في التاريخ لابن الأثير والعقد الفريد لابن عبد ربه وأيام العرب في الجاهلية وهو كتاب حديث اعتمد فيه مؤلفوه على كتب القدماء السابقة.

وموضوع القصة يدور حول حرب البسوس التي أظهرت بطولة الزير سالم وأسفرت عن حرب طاحنة بين قبيلتي بكر وتغلب، ودامت الحرب قرابة أربعين عامًا على عادة العرب حين يكون السبب الثأر للدم والكرامة كما حصل في حرب داحس والغبراء التي حدثت بين عبس وذبيان بعد حرب البسوس بزمن قليل.

ولا أريد الوقوف على أحداث القصة بالتفصيل فقد شاهدها الملايين من العرب والمسلمين على مدار سنوات في أرجاء الدنيا، وكان عرض المسلسل موفقًا إلى حدّ كبير، لكني هدفت من مقالتي هذه إلى الوقوف على بعض أخلاق العرب في ذلك العصر البعيد الموصوف بالجاهلية، لأقارن بين أخلاق ذاك الزمان وأخلاقنا نحن في عصرنا هذا عصر التقدم والعلم.

لقد عاش العرب قبل الإسلام حياة تقوم على الانتماء للقبيلة والعشيرة، وكانت هناك أفكار ومبادئ تؤمن بها القبيلة وتدافع عنها بقوة وعزم؛ منها طاعة شيخ القبيلة وتنفيذ أوامره، ثم حماية الجار والوفاء بالعهد وإكرام الضيف والحفاظ على الكرامة والشرف والتحلي بالشجاعة والصدق والدفاع عن القبيلة سواء أكانت ظالمة أم مظلومة، والأخذ بالثأر. وحين جاء الإسلام عزّز بعض المفاهيم الحسنة التي تتفق وتعاليمه، وحارب المفاهيم التي تتعارض مع شرعه وأخلاقه كالتعصب القبلي والأخذ بالثأر.

لقد جاءت أحداث قصة الزير لتتلاءم مع الجو الجاهلي السائد في ذلك العصر، فرأينا تعصب الأبناء لقبيلتهم في بكر وتغلب على الرغم مما بينهم من قربى ومصاهرة، ورأينا عادة الثأر على أشدّها بين القبيلتين بعد مقتل وائل بن ربيعة الملقب بكليب غدرًا على يد جساس بن مرة، هناك أمور شاهدناها وهي بحاجة إلى وقفة طويلة من التأمل والدراسة فهي تفيدنا في قراءة واقعنا الصعب هذه الأيام.

من هذه الأمور ضرورة ردّ الظالم المتجبر والعمل على إصلاحه بالقول أو بالفعل حفاظًا على العدل والعزة والكرامة والشرف، وقد تمثل ذلك بوحدة قبيلتي بكر وتغلب حين أراد الملك اليمني حسّان تبّع أن يتزوج من الجليلة بنت مرة أخت جساس وهي التي أحبها كليب واختارها زوجة له بعد ذلك. فعملت القبيلتان على إعداد خطة لقتل الملك ومحاربة جيشه والانتصار لكبرياء القبائل، علمًا أن المصادر التاريخية تجعل السبب السافر لحرب القبائل مع اليمنيين هو مقتل لبيد بن عنبسة عامل الملك اليمني على يد كليب بن ربيعة، حين طلب لبيد من كليب أن يجمع الإتاوة المفروضة على القبائل العربية، فرفض كليب لأن القبائل كانت تعاني من قحط ومجاعة في تلك الأيام. وعرفت تلك المعركة بيوم خَزاز أو خَزازى وهو موضع جبل كان يوقد عليه نار عند الغارة (ينظر لسان العرب لابن منظور).

ومن هذه الأمور أيضًا محاربة القاتل ومن يقف معه وعدم مصالحته كما حصل مع الزير ومعه التغلبيون حين سعوا للثأر لكليب الذي قتله جساس بسبب ناقة. لكنّ طلب الثأر شيء والإسراف في القتل شيء آخر؛ فالزير ومعه التغلبيون تجاوزوا حدود العقل والمنطق العربي في طلبهم للثأر، حين طلبوا المستحيل وهو عودة كليب حيًّا كما ورد على لسان ابنة كليب اليمامة، ولعل ذلك أعجب الزير فنظمه شعرًا فقال:

نرفضُ الصلحَ أو تردّوا كليبًا أو نذيقَ الرجال قهرًا وذلّا
نرفضُ الصلح أو تردّوا كليبًا أو نبيدَ الحيّينِ بكرًا وذُهلا
(ديوان المهلهل ص60)

نعم، محاربة الظالم واجبة، والقصاص من الحدود التي بينها الدين الإسلامي، لكن مجاوزة الحد بالإسراف وسفك الدماء لا يرضاه عاقل، وهذه سمة من سمات الجاهلية أنهم كانوا يقتلون أي شخص من قبيلة القاتل أو المطلوب للثأر. فالدفاع عن الكرامة والكبرياء شيء جميل، لكنّ الفتنة واقتتال الناس على الصغائر وتدمير بنية القبائل أشد وبالًا على المجتمع وأكثر سواداً من بياض البحث عن الكبرياء بداعي الثأر.

ومن الأمور التي نستلهمها من القصة عدم الاستعانة بالأعداء لحل مشاكلنا الداخلية، فقد كان بوسع بكر التي ذاقت الهزائم المتكررة على يد الزير والتغلبيين أن تطلب النجدة من أعداء العرب الروم أو الفرس، غير أنهم لم يفعلوا، وصبروا على القتال أربعين عامًا ولم يدخلوا أجنبيًّا لحسم المعركة.

ومن الأمور التي تثير المشاهد والقارئ أيضًا رفض الذلّ والتبعية مقابل حماية العرش والعيش الآمن، وتجلى ذلك بعد عودة الزير عجوزًا إلى قصر ابن أخيه الجرو (الهجرس) ورؤيته ما آلت أمور القبيلة بعد غيبته عنهم وخضوعهم للبكريين، وبيعهم لخيولهم وسلاحهم مقابل الحماية ونشر الأمان. وقد نظم الزير في هذا شعرًا فقال:

عَجِبَتْ أبناؤنا من فِعْلِنا إذ نبيع الخيـــــــلَ بالمِعزى اللِّجاب
عَلِموا أنّ لدينا عقبــــــةً غيــــر ما قـــــال صعيرُ بن كلابِ
إنمــــــا كانتْ بنا موصولةً أكْـــــلُ الناس بها أحرى النّهابِ
(ديوان المهلهل ص 23)

في قصة الزير سالم أو مسلسله ما يكشف عن عمق المأساة التي يعانيها المواطن العربي عمومًا والفلسطيني بخاصة؛ فقد سلبت أرض فلسطين، ونُهبت خيرات الأمة، ودُنست المقدسات، وجرحت الكرامة والعزة والكبرياء، فإذا كان الزير والتغلبيون قاتلوا أربعين عامًا أقرب القبائل عليهم ثأرًا لمقتل ملكهم كليب، فكم يحتاج العرب والمسلمون للثأر لبيت المقدس ولدماء المسلمين من عهد الاستعمار وما تلا ذلك من ضياع الأرض وسفك لدماء المسلمين في فلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان؟ وهل كان التغلبيون يقدرون قيمة الإنسان أكثر ما يقدّره العرب والمسلمون اليوم...!

وهل كان الزير يستمدّ شجاعته من لقبه الذي يُشْعره بالضعف والهشاشة كما يرى بعض الكتّاب؟ ومتى كان اللقب عارًا يحاول الإنسان غسله وإثبات عكسه؟ ولماذا لم يفعل المتنبي الشاعر الكبير ذلك حين اتهم زورًا بادعاء النبوة، فلم يجعل من نفسه شيخًا من شيوخ الإسلام فبقي ابن طبيعته وفطرته ونشأته مدافعًا عنها حتى قتل...

وهل نحن بحاجة لمهلهل جديد يمحو عنا آثار الخنوع والهزيمة ويثأر لجحافل الشهداء، أو لكليب فيوحد القبائل العربية التي عادت شعوبًا متفرقة لا يجمعها سوى هذا اللسان، وقد يقول قائل: لماذا لا نحتاج للصحابة الكرام وأبطال الإسلام بدل أولئك الجاهليين كعمر بن الخطاب وخالد وصلاح الدين؟ فنقول، إن هؤلاء نهجهم واضح وسيرتهم ناصعة، لكننا لم نردهم قدوة لنا، فوجودهم في تاريخنا لا يستفزّ أحدًا، ونحن براء من سيرتهم، ونحن أقرب إلى الجاهلية منا إلى الإسلام، غير أن في الجاهلية ما هو أجلّ وأسمى مما نعايشه في زماننا هذا من المذلة وضياع الكرامة، والتفكك والضعف وسيطرة الأعداء على خيراتنا ومواردنا...!

نحن بحاجة إلى أن نقرأ التاريخ ونعي تراثنا وحضارتنا وعيًا سليمًا، ونستلهم ما فيه من عبر وعظات، كي لا يأتي على أجيالنا زمن تعيش فيه دون حضارة أو تراث؛ إذ إن تراكمات التطور التكنولوجي التي نعايشها قد جعلت كثيرًا من

شبابنا مفتونا بحضارة الغرب ووسائل عيشه، ومنسلخًا عن تراثه وواقعه، مشدوهًا لكل جديد يصدر عن الغرب، ويصمّ أذنيه عن مأساة وطنه وأمته، ويحيد طرْفه عن تاريخه وهويته...! وكأنه يقول كما قال الشنفرى:

أقيموا بني أمي صدور مطيّكم فإني إلى قومٍ سواكم لأميَلُ

نشر في دار ناشري الكويتية للنشر الإلكتروني

وفي رابطة أدباء الشام 2013

المَثَلُ العربيُّ بين الأمس واليوم...!

المَثَلُ في اللغة مأخوذ من الجذر الثلاثي "مَثَلَ"، والذي منه المِثالُ ومعناه: الشّبَه والنظير، وقد عدّ البلاغيون كلمة "مِثْل" من أدوات التشبيه، التي توضع للماثلة بين شيئين، كالكاف، وكأنّ، وأشْبَه...

أما في الاصطلاح فهو قول موجز قيلَ في مناسبة ما وأصبح يُتمثلُ به للتعبير عن كلّ حالة تشبه تلك المناسبة التي وُجِد فيها.   وقد ساق الميداني في مقدمة كتابه "مجمع الأمثال" عددًا من آراء اللغويين والبلاغيين في المثل؛ كقول أبي العباس المبرّد: "المثْلُ مأخوذ من المِثال وهو قولٌ سائرٌ يُشبّهُ به حال الثاني بالأول. والأصل فيه التشبيه". وكقول ابن السكِّيت: "المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ، شبهوه بالمِثال الذي يُعْمَلُ عليه غيره..." ويرى ابن عبد ربه في العقد الفريد "أن الأمثال وشي الكلام وجوهر اللفظ وجلي المعاني، وهي أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة، لم يَسرْ شيءٌ مسيرها ولا عمّ عمومها حتى قيل: أسْيَرُ من مَثَل".

والحقُّ أن الأمثال فنّ نثري قائم بذاته من فنون الأدب كالشعر والخطابة والرسائل والمقامات.

وقد لقي عناية العلماء القدماء أمثال الأصمعي والنضر بن شميل وأبي فيد السدوسي وابن سلام والمفضل الضبّي وغيرهم كثير، لكن أكثر كتب الأمثال شيوعًا هي كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ومجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني. وقد اشتمل القرآن الكريم على نحو سبعة وثمانين موضعًا ورد فيها كلمة: "مَثَلُ – مِثْلَ – أمثال – الأمثال – مَثَلًا..." كقوله –تعالى-: "واضربْ لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون" [يس 13]، وقوله –تعالى- : "وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه" [يس78] وقوله –تعالى- : "وتلك الأمثالُ نضربها للناس لعلهم يتفكرون" [الحشر 21] وغير ذلك كثير.

وللمثل خصائص تميزه عن غيره من الكلام أوجزها إبراهيم النّظام -وأوردها الميداني في مقدمة كتابه -بقوله: "يجتمعُ في المَثَلِ أربعة لا تجتمعُ في غيره من الكلام وهي: إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية."

ولعل المثل يسهم في إثراء المعنى وتقريبه إلى ذهن السامع؛ لذا استعمله الكتّاب والخطباء عبر القرون، تقوية للحجة، ودفعًا للتهمة، وقرعًا للخصم، وقد قام ابن أبي الحديدي بدراسة للأمثال في كتاب نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب، فإذا بها تربو على ثلاثمائة مثل، ما يدل على أهمية المثل في فن الخطاب...
وقد كتب أمين اليزيدي رسالة دكتوراه في الخصائص الفنية للحكم والأمثال العربية في السودان عام 2005م، ورأى أن المثل من أبرز وأقدم فنون القول لما يشتمل عليه من بذور الفنون الأخرى كالإيقاع والخرافة والحكاية على لسان الحيوان...

والقارئ للأمثال العربية القديمة من حيث دلالاتها يجدها غزيرة الدلالة؛ فهي لم تُقَل من فراغ، وإنما أمْلَتْها التجربة وطول الفكرة، وكانت زبدة المقال في المقام. لذا نرى بعضها يبدأ باسم التفضيل "أشجعُ، أجبنُ، أعزُّ، أهونُ، أبخلُ، أكرمُ..." أو أسماء الشرط المعروفة أو النفي، وهي في مجملها إما تحذير من أمر ما كقولهم "قد شمّرتْ عن ساقها فشمّري" يضرب في الاستعداد والتحذير من الغفلة، وكقولهم: "هذا أوان الشدّ فاشتدي زِيَم" وزِيَم اسم فرس، وكقولهم: "هُدنة على دَخَن" أي: على فساد، وهذا تحذير للتنبه عند المصالحات ووقف القتال، والدّخنُ تغير الطعام مما يصيبه من الدّخان ثم استعير لفساد الضمائر، وكقولهم: "الندمُ على السكوت خير من الندم على القول" وفي هذا تحذير من كثرة القول فيما يعرف ولا يعرف، ومثله: "لا تهرف بما لا تعرف"، ومثله: "المكثار كحاطب ليل" أي: المكثار من الكلام فيما لا يعرف كالذي يحتطب في الليل، فربما لدغته أفعى أو لسعته عقرب وهو لا يعرف وغير ذلك كثير. وبعض هذه الأمثال علامة

على التصاق الفعل بصاحبه أكثر من غيره ، وبخاصة تلك الأمثال التي تبدأ باسم التفضيل، كقولهم: "أكرَمُ من أسد وألأمُ من ذئب" لأن الأسد إذا شبع لم يكترث بما يمرّ به من حيوانات، أما الذئب فإنه طوال وقته يتعرض لما يعرض له، وكقولهم: "أعدى من الشنفرى" لسرعته في الجري، وكقولهم: "أعزّ من كليب وائل" فكان من عزته أنه حمى الكلأ فلا يقرب حماه أحد، ويجير الصيد بأرضه فلا يُهاج، وكقولهم: "أبصر من زرقاء اليمامة" وكقولهم: "أخطبُ من سحبان وائل" لشهرته في الخطابة، وقولهم: "وأجهلُ من فراشة" و "أجبنُ من نعامة" و "وأجود من حاتم" و "وأشأمُ من البسوس" وغير ذلك كثير . وبعض هذه الأمثال وضعت موضع النصيحة والإخبار ليتعظ بها كقولهم: "سبق السيف العذل" وكقولهم: "سُبَّني واصدقْ" يضرب في الحث على الصدق، وكقولهم: "لا يفلّ الحديد إلّا الحديد" وقولهم: "الشماتة لؤم" وقولهم: "أحبب حبيبك هونا ما" وقولهم: "خالف تُذكر" وقولهم: "خير مالك ما نفعك" وقولهم: "ربّ ساعٍ لقاعد" وقولهم: "ربّ أمنية جلبت منية"، وقولهم: "الغضبُ غولُ الحلم" أي: مهلكُهُ، وقولهم: "من لاحاك فقد عاداك" وقولهم : "من مأمنه يؤتى الحذِرُ" وقولهم: "الملك عقيم"؛ لأنه يقطع الأرحام ويفرّق الجماعات فلا يبقي أحدًا، وقولهم: "المنيّة ولا الدنيّة" وغير ذلك كثير...

والصحيح أني قرأت كثيرًا من الأمثال العربية القديمة، وهي –بحق–ترسم صورة للإنسان العربي في مناحي حياته، وطرق تفكيره، وثقافته، فإذا هي قوية عزيزة تحثّ على الفضائل وتحذر من الرذائل، وتعلي من الأخلاق الكريمة، وتحطّ من المعايب. صورةٌ في مجملها مشرقة تدلّ دلالة بيّنة على دور الكلمة في حياته، فهو يقولها، ويسمعها، ثم تنتشر في الأرض انتشار الهشيم، كيف لا! والعرب أمّة تميزت بالفصاحة، وما فقهت العرب ولا أبدعت إلا فنّ الكلمة، لذا روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال: "الشعر ديوان العرب" والشعر كلام موزون مقفى؛ لكنه يصف الحياة العربية القديمة، ويصورها أجمل تصوير. ولعل السبب الذي دفع الجاحظ إلى تأليف كتاب البيان والتبيين هو إثبات أن العرب هم

أصحاب البلاغة والخطابة والفصاحة، وهو في ذلك يردّ على الشعوبيين الذي ادّعوا أنهم أهل الفصاحة والبيان.

وحين نستعرض أمثال العرب في العصر الحديث، لا نصدق أنّ لها صلة بأولئك الذين طواهم الزمن، وخلّد مآثرهم في المكتبات، بعد أن صنعوا المعجزات بإيمانهم وحكمتهم وبأسهم.

أجل، لا نصدّقُ أنّ هذه الأمثال يقولها ويرددها امرؤٌ يحمل ذاك التراث الثرّ! فهي أمثال تصور ما نعايشه من ضيق وقلق سببه أنّ الحياة أصبحت مادية محض، في مقاييسها للقوة والضعف، والنجاح والفشل، ومن خوف منشؤه انعدام الثقة بين الناس ، وشعورنا أن المصلحة هي الأساس المتين الذي يحرك علاقات الناس ، ويدفعها إلى السكوت عن الحقّ ومدارة الباطل ، والتظاهر بالمحبة، والتصنع بالكراهية ؛ وسأسرد بعض الأمثال التي تشيع في مجتمعاتنا كما يتلفظ بها الناس اليوم كقولهم: (حطّْ راسك بين الروس وقول يا قطاع الروس) ومثله (الموت مع الناس نعاس) أو (رحمة) ويريدون بذلك ألّا ينفرد الإنسان برأيه، خوف أن يلحقه أذى، أو ألّا يبتعد عن الجماعة في قول أو فعلٍ وإن كانت على خطأ، ويقولون: (بوس الكلب من فمه حتى توخذ حاجتك منه) وهو حثّ صريح على النفاق والبحث عن المصلحة وتقمص شخصية أخرى مخالفة للواقع ومصاحبة من بيده المال والجاه (صاحِبْ السيف ولو جَرَحَكْ)، ومثله قولهم: (اطعمْ الفم بتستحي العين) وذلك للوصول إلى تحقيق الغرض بصرف النظر عن المُطْعَم يستحقُ أم لا يستحق، ومن الأمثال ما يدعو صراحة إلى الابتعاد عن مشاكل الناس وعدم الإسهام في حلّها أو التوسط بين الخصوم، كقوله : (فخّار يكسر بعضه) و (يا داخل بين البصلة وقشرتها ما بطولك غير ريحتها) و(امشِ الحيط الحيط وقول يا رب الستر) و(ابعدْ عن الشرّ وغنيلو) و (الهريبة ثلثين المراجل) وربما دعت بعض الأمثال إلى الصمت وعدم معالجة الأمر صراحة والرضا بالسيء والتعايش معه، فيقولون (غُلُبْ وستيرة ولا غُلب وفضيحة) أو

(خليها في القلب تجرح ولا تطلع وتفضح). ومن الأمثال ما تفتت العلاقات الاجتماعية بين الناس وتسهم في التفكك وتجعل الحياة للغالب على المغلوب ، فهي تدعو لزعزعة ثقة المصلحين في الإصلاح كقولهم: (رعاية البقر ولا رعاية البشر) وقولهم: (بين البايع والشاري يفتح الله)، ومن الأمثال التي تحمل دلالات سلبية وتعبر عن واقع سيء ما يتصل بالحياة الزوجية وهي العلاقة المقدسة التي تتشكل في كيانها الأسرة الصالحة، فنجدهم يقولون: (اللي بتزوج أمي هو عمي) وقولهم: (ريحة الزوج ولا عدمه) ومثله (الزوج رحمة ولو كان فحمة) وذلك حين يكون الزواج غير مناسب، وقولهم: (امشِ في جنازة ولا تمشِ بجوازه) ومنها ما ينسب العيب في الفتاة إلى أمها (طبْ الجرة على فمها بتطلع البنت لأمها)، ومنها ما يثير التشاؤم بإنجاب البنات ويعدّهنّ همًّا مستفحلًا لا خلاص منه كقولهم: (همّ البنات للممات)، ومنها ما يجعل العلاقة الزوجية قائمة على الشك وانعدام الثقة كقولهم (يا مأمنه للرجال يا مأمنه للميه بالغربال).

ثم نجد الأخطر في هذه الأمثال وهي تخالف قواعد الإيمان في حياة الإنسان المسلم ولا تتوافق مع عقيدة التوحيد، ونجد كثير من الناس يرددها وهي تطعن في عقيدته من حيث لا يدري، وهي –للأسف- كثيرة منها قولهم: (الله بيطعم اللحمة للي مالوش سنان) وبعضهم يقول: (الفول) أو (الجوز)، وهذا ظلم وافتراء على الله –عزّ وجل- وشك في عدله، لكنهم حين يعجزون عن تفسير نزول النعمة على واحد أو جماعة من الناس، لا يجدون تفسيرًا إلّا الشك بالعدل الإلهي، لأنه –عزّ وجل- هو الذي يحدد متى يعطي ومتى يحرم! ومن يرزق ومن يمنع! وهل هي نعمة أم ابتلاء ونقمة! وقولهم في البنات: (جوزت بنتي لارتاح من بلاها أجتني وأربعة من وراها) فالقائل هنا ينسى أن الذرية من ذكور وإناث من الله -عزّ وجلّ-، وأن الرزق بيده، فهو حين يردد هذا المثل يعود للجاهلية ويصدق عليه قول الحقّ -جلّ وعلا- : "وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم" وقولهم حين ينتظرون شيئًا لم يأتِ بعد: (تا ييجي الصبي بنصلي على النبي)

فكأنّ الصلاة على النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- معقودة بتحقق المطلوب، وهذا فهم خاطئ يعبر عن الجهل بثمرة الصلاة على نبينا -صلى الله عليه وسلم- في كلّ حين، وقولهم: (أنا وأخوي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب) فهذا المثل لا يتصل بالإسلام في شيء، وهو يدعو إلى العصبية الجاهلية؛ لأنه لا ينظر في الجرم بل ينظر في فاعله فقط، ويعبر عن مجتمع تجمعه رابطة الدم لا رابطة العقيدة، ورابطة الدم قد يداخلها الباطل والظلم وهما مرفوضان في الإسلام.

ومن الأمثال التي تتعارض مع تعاليم الإسلام وعقيدته السمحة أيضًا قولهم: (رزق الهُبُل على المجانين) ونلمس من هذا المثل أنّهم يجعلون رزق بعض الناس على بعض وليس بتقدير الله ومشيئته، وقولهم: (عُمْر الشقي بقي) أو (يطول) وهم يجعلون الشقاء سببًا لطول العمر، وينسون أنّ الله قدّر أقوات العباد وآجالهم في كتاب، وبعضهم يقول: (فلان عايش من قلّة الموت) كأن الموت يقلّ ويكثر بتقديرهم هم لا بتقدير المولى -عز وجلّ-. وبعض التجار حين تكون حركة البيع قليلة في يوم ما يقول من حيث لا يدري (بيعنا اليوم زي الصلاة على النبي) وكأنّ الصلاة على النبي -عليه الصلاة والسلام- كاسدة فثقل عليه لفظ الكساد وخفّ عليه تشبيهه (زي على الصلاة على النبي) متناسيًا أو متجاهلًا فضل الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-... وغير ذلك من أمثال منتشرة في مجتمعاتنا اليوم.

وخاتمة القول، إنّ الأمثال الشعبية وهي جزء رئيس من التراث الذي تعتزّ به الأمم، إنما تعكس حياة المجتمعات؛ الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية والاقتصادية، وما وصلت إليه من رقي وتطور أو جهل وتخلف. وبما إننا مجتمع إسلامي عربي نعاني ما نعاني من المصائب ليل نهار، فحريّ بأمثالنا التي نرددها أن تكون موافقة لبنية المجتمع الذي ننتمي إليه، والعقيدة التي اخترناها، وللتراث الحضاري المشرق الذي ورثناه عن الأجداد ونريد أن ننقله إلى الأحفاد...!

أجل، حريٌّ بنا أن تكون أمثالنا مثلُنا في الانتماء والحثّ على الخير والصلاح، والإعلاء من الفضائل والحط من الرذائل، مهما كانت طريق الفضائل طويلة وصعبة؛ فإنّ ظلالها كثيرة، وثمارها وافرة، ونهايتها آمنة؛ ومهما كانت طريق الرذائل سهلة وملوّنة خادعة؛ فإن طريقها غادرة، وألوانها باهتة، وثمارها ممرضة، ونهايتها مدمّرة. ولا نريد أن يصدق فينا قول الشاعر بعد ذلك حين قال:

إذا ما الناسُ جرّبَهم لبيـــبٌ فإني قد أكلتُهُمُ وذاقـــا

فلم أرَ ودَّهم إلا خداعـــــًا ولم أرَ دينَهُمْ إلاّ نفاقـــا

نشر في مجلة الإسراء الصادرة عن دار الإفتاء الفلسطينية

في القدس في 2015/2/27

أحاديث في النقد السياسي

زمان الصورة الواحدة...!

لعلّ حديث السياسة في أيامنا هذه، بات يسبب ألمًا شديدًا في الرأس، ويترك جدلًا عقيمًا في المجالس، وحالة من الملل والإحباط، تبعدك عن الواقع أكثر مما تدنيك. وتجعلك تفقد السيطرة على شتات أفكارك المتزاحمة، وعلى ما ينبغي من عمل صحيح، من السياسيين أو من عشاق حديث السياسة.

في كلّ صباح اعتدتَ أن تسمع نغمة جديدة، لا تبعث نحوك الأمل بقدر ما تقصيه، وكلّ مساء اعتدت أن تمسي على أنباء لا تترك للنوم إليك سبيلا، تبقيك بين الماء والنار، وبين الحرّ اللاهب والبرد القارص، كأنّ كلّ شيء اختلت موازينه، فضاع فيه الحق القوي، وحلّ الباطل الضعيف.

والحقيقة أنّ غبار السنين الماضية انكشف، وبان ما توارى خلفه، فصار واضحًا، ولم يعدّ الشك يستطيع أن يؤسس لفكرة ما، كانت من قبلُ يمكن أن تجد لها آذانًا صاغية، ومكانًا من النقاش والمدارسة.

نعم، فقد انتفى الشك بالجزم، وذاب الوهم باليقين، كأنّ كلّ يوم يمضي اعتراف بتلك الحقيقة، وتعزيز لوجودها، ودحر لما تبقى من هواجس ولملمات ظنون.

الناظر لهذا الزمان الذي نعيشه، يجد أن يد البطش هي التي تتحرك فتحكم وتأمر وتنهى، وكلّ لحظة تمضيها في الاستماع للإخبار، أو تقرأ بها تحليلًا ما، لا تخرج بغير هذه النتيجة. فزمانك لواحد على واحد؛ للقوي على الضعيف، وللغني على الفقير، وللكثير على القليل، ومتى كنت في الخانة الأولى، فأنت مالكٌ وحاكم وآمر وسيّد، تطيعك الشياه الرعاديد، وإنْ كنت في الصف الآخر، فاحمل جراحك وأمعاءك، وابكِ ما شئت حسرة وأسفًا فمن وراءك ذئاب تطاردك حتى في أحلامك، تريدك ألا ترى سواها، وأنت تئنّ وجع الظهر، بعد يوم عمل طويل! وما ذاك إلاّ لأنك أردت أن تعيش كما قسم الله لك، فوقع نصيبك في الصف الثاني، فرضيت ما

رضيت، كنبتة الجبال، لم يغرسها أحد، لكن الإرادة الإلهية عملت فيها، فشقت طريقها بين الصخور والحجارة، ورضيت بعيشها بين الأشواك، لكنّ حياتها هذه لم تعجب الذين يسيرون على غير هدى، فيدوسونها، ليس لأنها ضعيفة فحسب؛ بل لأنّ طبيعتهم جبلت على البطش والتدمير، وهربت من الطريق المستقيم الذي يرتاده العقلاء وذوو الفطرة الصحيحة، فترى طبيعته تلك تتلوى في سيرها مرضاة لأهوائها التي لا تملّ من سحق البسطاء.

هذا يا صاحِ، حالُ الضعفاء مع الأقوياء، حال تلك النبتة المسكينة مع اليد الباطشة، فلا تصدق سوى ذلك، وكلّ ما تسمعه بأذنيك أو تراه بعينيك يدور في هذه الحقيقة، ويغرف من هذا الماء، كحال الأفعى والحرباء، تحاول التضليل كثيرًا لتحفظ حياتها، وبقاءها. وعاقل من وعى، وجاهل من سعى إلى أن يتعظ بنفسه. وهكذا، فأنت تجد أن الموسيقا التي نسمعها واحدة، والمغني هو نفسه، لكنّ الذين يطربون لهذا الغناء كثير، والذين يتألمون ويصرخون ويستصرخون كثير أيضًا؛ في الشرق البعيد جنوبًا وشمالًا؛ في أفغانستان وكشمير، في الصومال وفي العراق، وفي البوسنة، وغير ذلك من أرض الله الممتدة، حتى إذا وصلت هنا إلى فلسطين قلب العروبة والإسلام، وجدت كأنّ الدنيا صورة واحدة، كأنّ كلّ جزءٍ فيها وترٌ في تلك الآلة، أو لحنٌ في تلك الأغنية، أو عضوٌ من ذاك المغني!

ألم يكن الفرس والرومان يحكمان الدينا في يوم من الأيام! ألم يخرج الإسكندر المقدوني من مملكته غازيًا الشرق؟ ليس لشيء إلّا لشعوره بالعظمة والقوة! أتعتقد أن رعيته كانوا بحاجة لطعام وشراب حتى جعل من أجسادهم جسرًا يعبر به أجساد الآخرين؟ أترى أن أمريكيا وقوى الاستعمار تختلف عن هذا الإسكندر؟ ربما تختلف عنه في شكله ووسائله، لكنها توافقه في شرّه وبطشه وتعسفه، وهي ملومة أكثر منه أضعاف ما يستحق من لوم! أتدري لماذا؟ أم تعلم أن القتل بالسيف ليس كالقتل بالقنابل! نعم، فالقتل بالجهل غير القتل بالعلم، وهل سنجد زمانًا تقدم فيه العلم وتطورت فيه الأمم أكثر من هذا الزمان! لكنّ

القتل كان يكلّف القائد جهدًا كبيرًا، وإعدادًا طويلًا، واليوم أنت لا تحتاج لتفتك بأمة أكثر من ضغطة على مفتاح، فتحرق الأخضر واليابس كما يقولون...!

مع الصعاب يا صاحِ، تسير الحياة، وتتكاثر ضروب العيش، وأصناف الاختبارات، والصراع الذي يخوضه الإنسان لا يملك أن يجعله صعبًا أو سهلًا، لكنه يملك أن يقرر كيف سينتهي! كأنّ كلّ علّة تنزل عليه تنزل لتقيس قوة الاحتمال لديه، ولا تنزل لأنه الأضعف؛ هذا إذا لم يكن الضعف عنده استسلام للمرض، وخور بالأعصاب، وقصر في النظر، وضيق في الصدر!

ما أحوجنا إلى أن نؤمن أنّ الإنسان أمل وإرادة، وعزيمة وثقة، وأنّ الحياة أحلام ومصاعب متحركة ليل نهار! وعليك في الحالتين أن تحيا بصفات الإنسان التي سكبها الله في دمك، وليس بما توفره لك الحياة من مقومات، فذلك قانون تعترف به الغابة ولا يستقيم مع العاقل السليم، والذين يخالفون طبيعة البشر – على كثرتهم- يخرجون أنفسهم من هذا الطريق، ويحاكون وحشية الذئاب وهي تنقض على جمال الطبيعة، فتسلبها بعض الصور الأصيلة؛ فكيف حين تكون الصورة لآدمي؟

1994/4/9 صحيفة القدس

على هامش العودة...!

قال الشاعر:

وأتعبُ من ناداك من لا تُجيبُه وأغيظُ من عاداكَ من لا تُشاكلُ

وما أكثر الذين يُتعبون هذه الأيام؛ لأنهم لا يُجيبون! وما أكثر الذين يُعادون؛ لأنهم لا يُشاكلون! لكنّك لا تملك قدرة كالشمس، فتستطيع أن تنفذ في كلّ شيء، وتؤثر فيه؛ لأنّ حساب النفس عسير يعني أنك وقفت على العتبة الأولى، وبدأت تشعر أنّ الكون مُسخّر للمخلوق ليبني؛ وليس مسخّراً له ليهدم!

وأنت على يقين ثابت، أن معاوية وعليًّا -رضي الله عنهما- من صلب واحد، وترائب واحدة، لم تكن هي الباعث على الاقتتال الطويل. وأن خروج المسلمين من مكة إلى الحبشة لا يقلل من درجة حبهم لتلك المدينة العريقة، ولا ينقص من قسوة مشركي مكة حين عادوا إليها. وأنّ أبا سفيان لم يؤمن رهبة لقوة المسلمين فقط، ولا لأنه عالم أن سيكون له ولذريته شأن عظيم؛ بل لأنّ الله هداه فوقع في ذلك الموقف، وقرأ الحقّ قراءة لم يكن يعلم بها من قبل أن لها حروفًا كتلك التي يراها الآن، وأنّ لها معاني كهذه المعاني التي يحسّ بها وهو يقرأ.

هذا حديث تحتفظ به ذاكرة التاريخ، إذ يطلب الواقع أحيانًا تفسيرًا كيف انبلج من الماضي! وكيف نما، وسار به الزمان حتى وصل إلى ما وصل إليه؛ فتشكل على هذه الهيئة، وانقلب إلى هذه الصورة؛ لارتباط الجدار بالجدار، والسقف بالقاعدة.

وقد كان ما كان من سنين النكبات الطويلة التي حفّت بشعبنا الفلسطيني بعد عصر العثمانيين الطويل، فما خرجنا من حلقة إلا دخلنا في أخرى، وفي كل حلقة دم جديد، وثكلى وأيتام وطرد وتهجير وسجون لا تنغلق أبوابها أمام الثائرين على الظلم، والمحبين لوطنهم وأمّتهم وعقيدتهم! كان ما كان من النكبات وما رمت به على الشاطئ، وما زرعته من أشواك، وفجّرته من براكين، ولا أقول كان بلغة

الماضي لأننا أصبحنا الفارس الوحيد في الميدان، أو القبطان الأوحد في البحر؛ ولكن لأن عصا موسى -عليه السلام- لا تستطيع أن تهضم الأفاعي جميعها مرة واحدة، والبحر لم يعد قادرًا على التجمد بشارة من أحد ليمرّ عليه المشردون الهاربون من الظلم.

تلك مصيبة تشتدّ علينا، ونشدّ عليها بالنواجذ، إذ نعتقد أنّ بإمكان القمح المزروع بسنين الشقاء أن يركض إلى المنازل، ويتشكل بهيئة العافية، وأن الذين تحتفظ بهم الأرض في ثراها سيخرجون منها ليتعلموا فن القتال من جديد.

أقول، إني لا أحبّ الكتابة حين تجعلني أرقبُ أين يستقرّ كلّ نجم في عرصات الفجر الصاعد من قبور الليل، وحين تصرّ أن يكون اللسان كالسيف يجزّ العنق من الوريد إلى الوريد، فلا يبقى في الجسم قطرة واحدة تؤكد أنّ فيه بقية من حياة، وذاك أنّ لغة الواقع لا تحتمل حرفًا من لغات أخرى يبخَسُ فيه حقّ آهةٍ واحدةٍ فينغلق أمامها مجرى الهواء!

أجل، لقد مضت علينا سنون كثيرة لم تغيّر من المعادلات شيئًا يجعل الحقّ أقرب ما يكون من صاحبه، وأبعدُ ما يكون من سالبه، وبقيت الأمور تسيرُ بتيار واحد، أو أننا لم نملك أن نفهمها إلّا على هذه الشاكلة من الإصرار العنيد الذي كان يُفسّر حينئذ أنه ثبات على الحقّ، وحيناً مواكبة لحرارة الطقس!

لقد عاد العائدون من إخوتنا الفلسطينيين، ممن كان مُحرّمٌ عليهم الحلم بالعودة، وعاشوا الغربة أوجاعها ومآسيها، وبعضهم حمل البندقية، وناضل سنين طويلة! عاد كثير منهم، وبقي كثير أيضًا! خرجوا منه في ريعان شبابهم، وعادوا إليه مع الخريف شيوخًا طامحين أن يبدؤوا من جديد رحلة ثانية هي أدقّ الرحلات في تاريخ جيل القضية.

ولعل هذه المرحلة شقّت طريقًا صعبًا مميزًا عن المراحل السابقة، فيه اختبار لا مفرّ منه، بين الذين تعلموا السياسة والنضال في المجالس بعيدًا عن نقطة الارتكاز، وبين الذين زرعوا قمحهم، وانتظروا الحصاد، ولاقوا ما لاقوا من الويلات والمصاعب.

هو اختبارٌ الواقع المرّ، عندما تُعطّل الحواس، ويطلب تحديد المذاق الخاص الذي يدفع إلى حياة جديدة تقرر بحاسة أخرى، لا تتصل بشيء فتراه عيانًا، أو تسمعه بأذنيك، أو يطلب منك أن تشعر به وأنت غائب عن الوعي!

وعليك أن تثبتَ أن سنين التجارب قد خلقتْ منك إنسانًا قادرًا على البناء، ومؤمنًا بالتغيير، ومخلصًا في عملك، وواثقًا أن عودتك ووجودك في أرضك هو أول شارات النصر!

أقول، لقد أمضينا زمانًا خانقًا ونحن نؤلف كلمات، ونخيط ألحان الأهزوجة الخاصة التي تدلّ علينا، وتميز عذاباتنا من عذابات الآخرين أو من ظلمهم، وترمز إلى هويتنا، وقد وعاها العالم أجمع، وحفظها عن ظهر قلب. وقد ولّى زمن الأهازيج الآن، ولن نطلب من أحد أن يسمع شيئًا، ولن يسمعوا! لكنهم سيفتحون أعينهم النجلاء ويشاهدون ماذا نصنع في وطن اجتمع فيه الأهل والأحبة من جديد! اجتمعت فيه الأيدي والعقول والقلوب والفؤوس والأرض!

فهل ستتحول الأهازيج التي كنّا ننظمها بعد كلّ نكبة وارتحال إلى قصائد تكون منظومة على أشدّ البحور ندرة، وهل ستفرغ السفن حمولتها بعد خمسين عامًا من السفر؟ وماذا حملت هذه الحقائب بعد هذا الفراق الثقيل!

إنّ لفي أعماق كل فلسطيني وعربي واعٍ سؤالًا طويلًا ربما يجيب عليه في مضائق نفسه، وحنايا صدره، أنْ ليس بوسع الشمس أن تنتظر ساعة حتى يصحو النائم ثقيل النوم من سباته! وليس بوسع الشاطئ أن يحدد مسار حركة البحر في أي وقت! هذا قدرٌ مجهول، وإرادة مخلوقة وخلاقة تستوحي عملها من قضاء الله وقدره!

علينا في هذه المرحلة الكثير مما لم يكن في السابق، أن نجدد الإيمان بالله، وبحتمية صنع واقع أفضل من خلال هذا الواقع المتاح، فهؤلاء الذين بقوا في الديار ولم يهجروها صامدين هم أكثر الناس معرفة بهذا العدو، وبعضهم لا يرى

ما حصل من اتفاقيات إلا استراحة محارب، وفترة اختبار مهمة وحاسمة ستعمل عملها وتنقي الزيت من الشوائب، والماء من الكدر، واللبن من الرُّغوة، والسماء من الغيم!

وربما كنت مخالفًا لهؤلاء المتشائمين، لقناعتي أن العودة الجزئية هذه هي رصيد ينضاف لكفاح الفلسطينيين هنا على الأرض، أرض الوطن، ويخلّصه من الذين تنمّروا في غابة الاحتلال، واستأسدوا على الفقراء والبسطاء من أبناء شعبنا، فعاثوا خرابًا في بلدهم، ولم يروا إلّا مصالحهم الخاصة فقط. فوجود هؤلاء الذين عرفوا المعاناة والكفاح يبعث على الراحة والأمل، وربما يقضي أن نعيش مرحلة يقترب فيها حلم التحرير والنصر أكثر مما كان في الماضي. لأنّ القادمين إلى وطنهم وأهلهم بهذا الشوق، وبعد هذه المرارة، سيكون أمامهم وقت لترتيب أوراقهم جيدًا، ويشاركوا شعبهم في حياته عن كثب، ويقرؤوا المحتلّ من جديد وهو أمامهم في معاقله يجول ويصول، لا يرى أحدًا، ولا يحسب حسابًا لأحد. ولعلّ هذا من أهم الدوافع التي تجعلنا راضين عن عودة العائدين إلى وطنهم بعد تلك المفاوضات التي لا نعلم شيئًا من سرّها سوى هذه العودة، وسيطرة إخوتنا على المدن والقرى الفلسطينية، وانسحاب المحتل من حياتنا المباشرة.

إنّ الآمال التي يحملها كلّ عائد إلى هذا الوطن لا تقلّ قوة عن الآمال والأحلام التي نحملها نحن! تلك التي نُبذتْ منذ بدأ ليل الاستعمار يحجب عنا الحياة الحقيقية التي يطمح كلّ إنسان أن يمارسها على أرضه بين أهله وأبناء شعبه وأمته، ولن نقول كما قال الشاعر:

وكم على الأرض من نبتٍ بلا أَرَجٍ   وكم علا الأفقَ غيمٌ ما به مطرُ

ولكننا نقول:

العزمُ في الروح حقٌّ ليس يُنكرهُ   عزمُ السواعد شاء الناس أم نكروا

وليست أمريكيا اليوم بحضارتها ونهضتها إلّا من صنع رجال رحلوا إليها، وعملوا ليل نهار في البناء والإعمار، ووضع اسمها على خريطة العالم الصناعي المتقدم، فكان لهم ما أرادوا، رغم اختلافهم العرقي وتعدد مشاربهم.

إنّ لدينا طاقات خلاّقة، ومبْتَكِرَة، وإرادة صلبة، وعزمًا لا يلين، فكيف والحال يفرض علينا أن نتحدى؟ وأن نثبت للقريب والبعيد أننا جديرون بالعيش الكريم العزيز، وقد ذقنا من الويلات ما ذقنا، وتجرعنا من غصص الزمان ما يتكدر به ماء المحيط!

ألا إنّ في الزمان صحوة ويقظة واحدة، فإنْ فاتت فهي غفلة إلى الأبد، فلنجعل ما مضى منه لا يعدو أن يكون طَرَقاتٍ دقّتْ على الضلوع والأدمغة دقاتها، فإن استيقظنا، فهذا بشير خير، بأننا نحب الحياة، ونعشق العزة والكرامة والشرف الرفيع، وإنْ لم تغير منا الأحداث شيئًا، وبقينا على ما كنّا عليه من الركض خلف مصالحنا وغاياتنا بعيدًا عن القدس وحقوق اللاجئين والاستقلال التام، فهذا نذير شؤم، ودفق لا ينتهي من اليأس والإحباط لمن ينتظرون منا الصلاح والبناء والتقدم.

لذا علينا أن نجيب نداء الصلاح والإصلاح، والخير والبناء والتعمير، وننبذ الفرقة والفساد، فقد جمَعَنا حب العقيدة والوطن، فعشنا الحلاوة والمرارة بيد واحدة، ونزفت النكبات من جرح واحد، وما يجمعنا أكثر مما يفرّقنا، وشعبكم هنا سيرى ما تفعلون، وستكون سعادته بقدر الحلم الكبير الذي رسمه فيكم وبدأتم بتحقيقه. ونسأل الله القدير أن يلمّ شمل أمتنا ويجمع كلمتها على الحق والخير، ويهديها سبل الرشاد والفلاح.

....

(بعد عودة كثير من المقاتلين والسياسيين الفلسطينيين من الشتات بعد مفاوضات أوسلو).

1994/9/21 صحيفة القدس

المـــــــؤلمُ حقًّا...!

قال صاحبي: ما أكثر ما تآلب الناس على فلان، فهاجموه جهرة، وكادوا له سرًّا، وأغروا به ألسنتهم وأقلامهم وهو ثابت في مكانه، لا يزول، فردّ الأستاذ الشيخ: إنما فعلهم ومثله قول الشاعر القديم:

كناطحٍ صخرة يومًا ليوهنها   فلم يضِرْها، وأوهى قرنه الوعلُ

هذا حديث طويل، لا يقف عند صخرة أو قرن وعل، فهو حديث شعبٍ أسدل العالم حوله الستار، وابتلاه بالحصار الشديد، الذي لا يجرؤ قريب أو بعيد النفاذ من أسواره؛ لا من فوقها أو من تحتها.

أجل، تآلب الناس واشتطوا كثيرًا في الحكم على شعب العراق الأبي، فلم يجدوا تهمة إلّا جعلوه صاحبها، ولا ذنبًا إلّا حمّلوه جرمه، جعلوه سيد الخطّائين، وآخر التوابين، كأنّ زمانهم أصبح يسير على شاكلة واحدة من الصواب؛ وعلى وزن واحد من القسط، وعلى منهج بين من الحقّ، فلا ترى فيه خطأ، ولا ترى فيها انحرافًا ولا ظلمًا أو باطلًا!

أربع سنوات والعالم كله، يجمع أن ذنب العراق لا يغتفر، ولو سألك واحد مرة، أيمكن أن يجتمع العالم على رأي واحد؟ لكان جوابك قسمًا بالنفي! لكنه اليوم يجمع قولًا وفعلًا، وأنت تعي في نفسك أن هذا الإجماع لم يكن عن طريق الصدفة، ولا عن وجود خط جديد في السياسة، ولا عن نية في مراجعة الضمير وإقامة العدل في الأرض!

كثيرٌ ما يكون الخطأ صغيرًا في البدء، وكثيرٌ ما يكون علاجه أضرّ من الخطأ نفسه! وذلك حين يكون القائم على الإصلاح غارقًا في الذنب، بل مشرعًا له؛ لكنه قوي، يستمدّ من قوته تلك ما يجعله يقلب الذنب فضيلة، والبطش نخوة، والدمار خطّةً في الإصلاح، والقهر تربية، وما ذاك لأنه يحكم بشريعة الغاب، وأن

الذين لا يقوون على صده ينخر في قلوبهم الضعف والوهن حتى وهم يتلفظون باسمه!

حين اجتاح العراق أرض الكويت، لم يترك العالم العرب يعالجون هذه المسألة، فهو لا يريد أن يكون هناك نظام عربي إسلامي قادر على حلّ مشاكله، بينما لم يتدخل العرب ولا المسلمون في صراع فيتنام أو جزر الفوكلاند أو حرب كوبا، فهم بأعين الغرب، عبيد وخدم لسياستها وأحلافها، والعبيد لا يتدخلون في شؤون سيدهم، ولا يقوون على حلّ مشاكلهم؛ هم ينفذون الأوامر، ولا يناقشون حتى فيما يخص حياتهم وحياة شعوبهم!

أقول، حين غزا العراق الكويت- وهو خطأ كبير- وبصرف النظر عن المبررات التي جنح إليها، فالشعبان عربيان مسلمان شقيقان - هرع العالم نحوه بالنار والحديد، فصبوا نارهم عليه، وجعلوا في كل منزل في أرضه رنةً وعويلًا، وقرروا أن الانسحاب من الكويت هو نهاية مطالبهم، فضربوا حوله الحصار الشامل، وضيّقوا عليه الخناق، فتراءى للناس أن وراء الكويت نارًا أخرى، وأن خلف العاصفة عاصفة من التجويع والحرمان، حتى أصبح المرء على يقين تام أن في عين الغرب هدفًا آخر أبعد من شعب الكويت، وكرامة الكويت، وهو كسر ساعد العراق -والعرب عامة- ذاك الذي لا يفتأ يتدفق دمًا وشبابًا، حتى يرتفع ثانية ويومئ للدنيا أن الحضارات تنطلق من قبضته، وأنّ العزة هي نبض الدم في الأصل، وكأن أمريكيا تريد الظهور بمظهر الأب الحاني والحريص على الكويت وأهله، فتضرب هذا لتنصف هذا، وفي الحقيقة لم تضرب ضرب الأب، ولم تنصف إنصاف الأخ من أخيه! بل أرادت أن يحدث ما حدث؛ لتجد مبررًا أمام العالم لتدمّير العراق، وإضعاف الكويت ونهب خيراتهما، وإعادة القضية الفلسطينية إلى مراتب متأخرة بعدما كانت تتصدر سلّم الأولويات لدى العرب، وبهذا تكون فلسطين أكبر خاسر من غزو العراق للكويت، وأكبر مصاب من دمار العراق...!

لكنّ المؤلم حقًّا، أن الزمان الذي تسود به أمريكيا لا يزال يعجّ بالفساد والفوضى، ولم يكن تجويع الأطفال خاتمة الأحزان ونهاية النكبات، ووأد المظالم، بل نجد أن

هناك ما يفوق خطأ اجتياح الكويت، يرتكب بحق العرب في عقر دارهم، ويرتكب بحقّ المسلمين في أماكن تواجدهم؛ في البوسنة والشيشان...!

والعجيب أن هذا العالم الذي اجتمع أمره على العراق، فهبّ هبة عاصفة، قد نام نومًا ثقيلًا أمام ما تفعله إسرائيل في فلسطين من جرائم يومية، وما تفعله طائراتها وجنودها في لبنان، وما يقوم به نظام الصرب بحق مسلمي البوسنة!

إن على الساسة العرب أن ينقذوا حقهم المغتصب في صنع السياسة العربية، التي تلبي مطامح الجمهور العربي، وعليهم أن يعلموا أن الحقّ الذي أعيد للكويت، وهو حق، قلبته أمريكيا وأتباعها ظلمًا وجوعًا وحصارًا بحق أطفال العراق...!

ولماذا لا يكون قرار مجلس الأمن القادم قرارًا عربيًّا يحكّم مصلحة العرب، ويثبت للشعب العربي أنه ليس آلة تدار وفق برنامج أمريكي؟

وعلى مجلس الأمن أن يقتنع بضرورة إنهاء مأساة العراقيين، بعد انتهاء الحرب، وألّا يضيع وقته وهو يفتش في حقائب العراق عما ليس موجودًا، ليولف له مبرر الاستمرار في الحصار... ألا إنّ في أعماق العراق صوتًا حزينًا قويًّا لو أتيح له أن يتحول لشيء، لتحول إلى قول الشاعر:

كم تطلبون لنا عيبًا فيعجزكم ويكرهُ الله ما تأتون والكرمُ

آذار1995 صحيفة القدس

ما يريده البسطاء...!

"قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: أيّ المودة أجدر أن تبقى على حوادث الدهر؟ قال الأستاذ الشيخ: هذه التي لم تخلقها الأثرة أو الإيثار، ولم تنشئها الحوادث التي تحدث، والنوائب التي تنوب، ولم تتصل بالمنافع القريبة أو البعيدة، وإنما قامت على توافق العقول، وتعاطف القلوب، واستحيت أن يتحدث عنها أصحابها حيت يلتقون".

إذا كان حديثنا في بدئه عن التآلف والتوافق؛ فأولى بنا أن نعثر عليه لدى الذين تجمعهم روابط الدم والوراثة، أو عند الذين سكب الله في نفوسهم قدرًا من الإيمان والمحبة والمواثيق!

هذا حين تكون المحبة والمودة عاطفة صادقة، يؤمن بها حاملها، وليس لديه شك في قدرتها على تحقيق الكثير من الخير والصلاح والرشد، إذ إنّ أي شيء يدخل في النفس ولا يؤثر فيها، يصبح وجوده وعدمه سيّان! أرأيت إلى المريض الذي يتناول في اليوم عددًا من الأدوية، ومضى عليه زمن طويل وحاله على حاله، من السوء، شكوى في النهار، وأنين في الليل. أترى أن هذه الأدوية أفادته بشيء، فغيّرت من مرضه شيئًا، فقللت من شكواه، أو خففت من أنينه!

وكذا المحبة يا صاحِ، فإذا ما سمعت أحدًا يلهج بها في المجالس، فلا تأخذ كلامه على محمل الجدّ، فحديث اللسان غير حديث القلب. فالمحبة الحقيقية لا تتوقف دقاتها عن الخفقان، وترى النفس التي تحمل هذه العاطفة، نفسًا تغضب ساعة ثم تهدأ، لكنها لا تحقد، تخاصم بقوة، وتسامح بقوة، وتفارق لكنها تحنّ حنين الإبل...!

لكنّ بقاء الفروع لا يدلّ على بقاء القاعدة أو ثباتها، وندر ما حدث عكس ذلك، إلّا ما شاء الله له أن يكون معلقًا في الهواء، لا هو يرتفع إلى أعلى فيغيب، ولا هو ينزل إلى الأصل فيثبت على يقين.

وإذا ما طمست القاعدة، ويبست الفروع، فلن تكون -حين تريد أن تثبت شيئًا- إلّا كمن يعصر الصخر ليشفى من داء الظمأ!

وهذا حديث بعيد عن الواقع الصغير والكبير، والخاص والعام، فزمننا زمن الندرة، وزمن الخفاء، بل زمن العجائب إن شئت!

وكيف تراه لا يتصف بذلك؟ وأنت لا تكاد تمضي يومًا إلّا وتسمع ما يجعلك أصمّ، ولا ترى شيئًا إلّا واستعذت أن يكون ما تراه حقيقة واقعة، ولا تجدّ إلّا الصمت الذي يبثّ في حشاك نارًا من الغضب والحزن، فيتركك نارًا تأكل بعضها، في هذا الواقع الكئيب!

وليس بمقدور الإنسان النقيّ أن يملك أنفاس المتنبي وقدرته على التجمل والمجاملة، حين رأى ودّ الناس صار خبًّا فجزى ابتسامًا على ابتسام، ونسيانًا بنسيان. لأنك مجبول على طبع خاص، تتألم فيه أشد الألم على قتل العدل، وصلب الحقّ، وفقدان الذاكرة!

ويشتدّ ألمك لأنك تعلم أنْ ليس بوسعك أن تملك قوة سحرية، تعالج بها قسوة القلوب، ولا الخوف أو القلق، ولا الظلم أو الاستبداد، إلاّ ما أعطاكه الله وجعله ميسرًا في إنسانيتك!

إن محبة الخير، تنبع من محبة الناس، وهي أمن واستقرار وسعة عيش، وهي حقّ وأصل مثبت في فطرة البشر، وبوجودها يمكن للسعادة الحقيقية أن تعمر القلوب، ويمكن للثمر أن يكثر ويصبح متاحًا؛ وهل ثمرٌ ينتج دون ماء؟ فكيف إذا كانت هذه المحبة والألفة هي الماء الذي ينبت لنا التوحد، والصلاح والبناء والازدهار؟

لكن، كيف لنا أن نقنع القوي الظالم بذلك؟ كيف نملك الوسيلة الناجعة لردعه عن ظلمه؟ وكبح جماحه؟ وجعل الخير والفضيلة والصلاح -أقصد المحبة- هي الشمس التي تغمر الأرض بنورها ودفئها، دون أن تستطيع قوة من أن تطفئ خيطًا واحدا من أشعتها؟ ثم تراهم وتسمعهم يقولون هذا عصر يحمل السلام والأمن والازدهار! وأنهم مكلفون بمحاربة الاستبداد، ورفع الظلم عن الشعوب

المغلوبة، وتراهم يحملون لافتة كبيرة من الشرق إلى الغرب لا تحمل إلّا عبارة واحدة "حقوق الإنسان"!

ونحن هنا في فلسطين، في الوطن العربي، من ننام في أعماق الجرح نومة التعب، المجرّح، ندرك أن هذه اللافتة محض دعاية خلاّبة، يصطف خلفها المستبدون، ليطيلوا عمر الاستبداد بأرضنا؛ لأنهم يمارسون سياسة الغزل الناعم الرقيق ثم الإبادة، أيّ كما يقولون في المثل الشعبي (تمسكن حتى يتمكن)، إذ لا نلمس دليلًا واحدًا على صدق هذه اللافتة، فمصدرها غير ثقة، وحاملها ثعلب، ودعاتها مستبدون! والمنطق العدل يرفض أن يتحول الشوك عنبًا، والحنظل شهدًا! فكيف نرجو من الظلم أن يزفّ الحق لعرشه المسلوب وهو سالبه؟

إنّ السلام والأمن والازدهار وحقوق الإنسان هي معانٍ جميلة رائعة في المعجم، لكنها لا تتحول إلى أثر تحسّ به الجوارح حين تكون عبارة مكتوبة على لافتة! ولا صيحة يرددها المتجبرون على المنابر! فحين ندقق في المناطق التي نشأت بها هذه الألفاظ نجدها مناطق بعيدة في الغرب، وسائر الدول الصناعية المتطورة.

تلك المناطق والدول التي أحسنت لأبنائها، بالعدل والرفاه والازدهار، ووفرت لهم كلّ أسباب الراحة والرقي، وأساءت لغيرهم من المسلمين والعرب، فحرمتهم من هذا الرقي وهذا الازدهار، واستولت على خيرات بلادهم، وزرعت الفرقة والشقاق بينهم، ومدّتهم بكل أسباب القتل والدمار، وعرّفتهم كل أسباب الفساد والانهيار، فقلبت في عقولهم المقاييس، فصاروا يرون الحياة في تقليد الغرب، بكل ما يفعل أو يقول! لذا بقينا هائمين مشردين متعبين في ظل العالم الجديد، نبحث عن أنفسنا في مرآة الغرب، ونقيس وزننا بقدرتنا على سحق بعضنا، واستعباد فقرائنا وبسطائنا!

أجل، نحن بحاجة إلى مراجعة شاملة، نعيد بها قراءة أنفسنا من جديد، كي نستطيع أن نملك الإرادة الصلبة، واليقين الثابت أن الخير لا يصنعه إلاّ الخيّرون، وأن الفضيلة والصلاح لا يفعلها ولا ينشرها إلاّ من ذاق ماءها، وقرأ رسالة الله في نفسه، تلك التي أرادها من خلقه حين أنشأ الكون.

أمّا الذين رضوا لأنفسهم الظلم، وغرّتهم أهازيج الغرب البراقة، فسيعلمون بعد زمن، أنهم يركضون خلف سراب خادع، لأن الظلم والاستبداد في الأصل هما من سمات الإنسان الضعيف المريض الذي يستوي عنده الماء الفرات والملح الأجاج...!

تشرين ثاني 1995 صحيفة القدس

حديث الوطن...!

هذه المرة، شكوت أوجاعًا كثيرة، وجلست إلى نفسي أعاتبها، عتاب المحبّ الذي أضناه السفر والانتظار، وطول التأمل في هذه الأوضاع التي تعاند، ولا تريد أن تتغير! ورأيتُ أن المفيد ألّا أكتب الآن حديثًا يتصل بالسياسة؛ إذ إنّ الحديث فيها يزيد في ألمي، ونحن نعيش في أمّة ندر ما تقبلت حديثًا موضوعيًّا حين يتصل الأمر بزيد أو عمرو، ووجدت أكثر الذين يجادلون يخسرون كثيرًا من علاقاتهم وروابطهم، ويحرقون أعصابهم، ويتلفون فهمهم للأمور جراء ذلك!

السياسة حبّ متعدد الأطراف، لا يبقيك على حالة واحدة من الثبات واليقين؛ فحينًا تستغرق في التحليل وتصل إلى نتائج صحيحة، تشعر أنّك ملهم وعبقري، وحينًا يوصلك التحليل إلى حقائق مرّة، إنْ أفصحت عنها تألّمتَ وتألم غيرك أيضًا، وإنْ سكتَّ، قتلك الصمت! فعشتَ بين نارين أخفّهما جمرُ!
لذا أرفض أن ألجَ مخاضًا أخرجُ فيه مهزومًا في الأعماق، وأمام الخلائق، وما فائدة الحديث في موضوع تكون نتائجه أحيانًا واضحة لا تحتاج لدليل؟

وحديث السياسة يا صاحِ، شائك، مُتْعِب، تخرج منه وأنت تشعر بالدوار والنصب، وبوخز في القلب، وليس أمضّ من وخز يكون سببه شعورك بالضعف والعجز! وحديث السياسة في وطننا وأمتنا يستعمل فيك كلّ ما خلق الله من صنوف الوخز، وما خلق من صنوف الألم!
وحديث الوطن، أقرب للقلوب، وأدنى للآذان، وذاك لأنا نصِف به ما يعتمل في النفوس، من مشاعر وأحاسيس، وبخاصة بعد عودة عدد كثير من إخوتنا الفلسطينيين لجزء من الوطن الكبير، وقد كتبنا في ذلك عند أول الحدث قبل عام، وها نحن نعاود الحديث وقد دخلت طلائع قوات الأمن الفلسطيني مدينة جنين، يركبون المركبات العسكرية، ويلوّحون بالعلم الفلسطيني، واصطفّ أهالي المدينة

والقرى المجاورة على الأرصفة مرحبين، مصفقين، ملوّحين بأيديهم، وهم في فرحة كبيرة، وكأن سنين الشقاء الطويلة تقف على كرسي الإعدام والحبل حول رقبتها، وإنْ هي إلّا دقائق، ويتدحرج الكرسي، فتتدحرج معه نكبات السنين الماضية، ونقترب من القدس أكثر، ومن عودة اللاجئين أكثر!

مشاعر غامرة من الفرح، وقد كنت تحلم طويلًا أن ترى رجالًا وطنيين ثائرين يحملون البنادق، ويجوبون شوارع المدينة، ولا شك أنه حقيقة مبهجة، تزيح عن صدرك همومًا ثقيلة، ولا تملك إلّا أن تغمض عينيك قليلًا وتقول: رحم الله الشهداء الأبرار الذي قضوا ولم يروا كيف تحولت دماؤهم إلى نصر، وبطولاتهم إلى عودة!

كان فرح جنين مميزًا، وكذا نابلس، لا أدري لماذا؟ ربما لأني شاهدتُ هذين الفرحين وعشتهما مع الناس الذين اصطفوا على الأرصفة مرحبين!

كانت الفرحة بحق، أكبر من الإخفاء، وأوضح من التكلف، كانت كالعاصفة التي هزّت الجسم، ولم تغادره إلّا بعدما طهّرته من الخوف، وغسلته من الحزن، والخوف والشك، وزيّنته بالأمل والبشرى! ليس لديك وقت لتقيس الحجم، وتعرف المساحة! فالفرح طلقة رصاص لا يهمّك العيار الذي خرجت منه، بقدر ما يهمّك وقوعها في الهدف! والقلوب التي خفقت شوقًا وترحابًا لغائب قادم كانت أكبر من كلّ المساحات، وأعظم من أدوات القياس؛ لأنّ الذي أُبْعِدَ عن الجنة وذاق مرارة النفي والبعاد والحرمان لا يزال يردد أن الوطن الحبيب هو الصدر الرحب الذي يتسع للرواية والشخوص! وطنٌ شريانه الحبّ، ولغته العطاء والفداء، ورايته النصر والحرية!

ألا يحقّ لأصحاب الجراح أن يجدوا سبيلًا للراحة! ولأصحاب الغربة الطويلة أن يصلوا لأمان الشاطئ! ولهذا الوطن الرائع المقدس أن يجد هويته ودفاتر أسفاره، ولليلى العامرية أن تجهر بالحقيقة!

كان الماضي الفلسطيني أكواخًا من البؤس على مدار سبعين عامًا، كان أصعب من أن تبحث عن لوحة بيضاء ترسم عليها الخريطة أو جذع شجرة من زيتون!

كان صراعًا لا يجعلك تهدأ، وكابوسًا يطاردك حتى وأنت في فراشك، وبين أهلك، كان مرور كلّ مركبة للاحتلال تجديد لذلك الكابوس، ورؤية كل خوذة لجندي، نزف للجرح، وبقاء للصراع!

ولكم وددتُ من كلّ قلبي لو كان هذا الفرح عامًّا في سائر المدن والقرى! وبخاصة في قدسنا الحبيبة! لأنّ المعاناة كانت عامة طامة، فلِمَ لا يكون الفرح كذلك؟

وأنا مقتنع أن الذي يؤمن بالخير والبناء قادر على أن يسقي بقطرات الندى زيتونًا وتينًا وبساتين، وأن الذين عاشوا الغربة العتماء سيجدون أنفسهم داخل الفجر الواعد بالأمل والأمن والتضحية والفداء!

ولِمَ لا يكون الوطن عظيمًا بنا، كما نحب له أن يكون دائمًا؟ لِمَ لا يكون جميلًا بالخير والعطاء والبناء والعدل والتسامح، ونحن رجاله الذي ذقنا مرارة الفساد والظلم؟

ألّا إن حديث الوطن عظيمٌ جدًّا، لا سبيل لتجسيده إلّا بالعمل الصادق الدؤوب، والإيمان الراسخ، والإرادة الصلبة، وذلك لنعي أن المشوار من الآن بدأ، وأن الوطن الذي تُقنا إليه بدأ ينادي؟

كانون الثاني 1995 صحيفة القدس

حصار العراق إلى أين...!

لا يزال الحديث عن العراق في أيامنا هذه من أبرز الأحاديث التي لا تفارق المجالس، في المؤسسات العامة والخاصة، في المساجد، والمنازل والمقاهي، في كل مكان يجتمع به نفرٌ من الناس!

ولا يخلو اجتماع بين الرؤساء أو الوزراء من تناول هذا الحديث. ذاك الذي قسّم العالم شطرين؛ واحد يريد من العراق أن يعود للخضوع والطاعة، وقبول السيطرة الأجنبية فوق أرضه، ففي ذلك خروج من الحصار الذي يعانيه بعد غزو الكويت عام 1990م، ليبقى ضعيفًا يتسول رغيف الخبز، من الذين نصّبوا أنفسهم سدنة العالم، وحماة أمنه واستقراره! وتمثل أمريكيا وبريطانيا ومن تبعهما هذا الشطر. أما الشطر الآخر فهو يعي أن الحقّ يقتضي أن يعيش العراق كما تعيش سائر البلاد، بحرية وأمن واستقرار، دون أن يكون لأحد حقّ الوصاية عليه! ويمثل هذا الشطر جلّ شعوب العالم، وبعض البلاد التي تعرف جيدًا معنى السيطرة والظلم وسلب إرادة الإنسان!

والعجيب في زماننا هذا أن تكون قوى الباطل والبغي ممثلة بأمريكيا هي التي قضت لنفسها، وأخذت على عاتقها مهمة إدارة العالم، والتحكم في سعادة الناس وشقائهم، وفق مصالحها وأطماعها؛ لذا نراها تزرع الخراب والفوضى في بلاد الأمن والاستقرار، وتدعم عناصر الإفساد والتدمير في كلّ مكان يرفض الناس حكمها، وينكرون وجهها القبيح!

وما العراق إلّا واحدًا من الذين اختاروا كرامتهم، وبناء مجدهم وحضارتهم، ورأوا في قبول أفعال أمريكيا بعد الانسحاب من الكويت مذلّة وعارًا، لذا فهم بين نارين؛ إما أن يقبلوا بما تريده أمريكيا وفي ذلك خضوع واستسلام ليس له نهاية! أو أن يعضوا على الجرح ويصبروا، ويرفضوا ما تحاول أمريكيا فرضه عليهم!

ولست أدري، لماذا تعود أساطيل أمريكيا والغرب إلى ماء الخليج مرة أخرى؟ بعدما ألحقت ما ألحقت من تدمير وخراب طال مدن العراق وقراه وبساتينه!

وهي تعود كما اعتادت في كلّ مرة تحمل الذرائع الواهية، في أنّ العراق يتمرد على منطقة الطيران التي حُددتْ له! ولا يتعاون مع لجان الأمم المتحدة في الكشف عن الأسلحة الفتاكة! ذرائع لا يقتنع بها عاقل أو مجنون! ولماذا لا يلقى شعب لبنان الذي يعاني ويلات الاحتلال الإسرائيلي العناية والاهتمام الذي يلقاه الأكراد شمال العراق! ولماذا لا تكون دماء المسلمين في البوسنة والشيشان وفلسطين غالية ومحرمة كما هي دماء الأكراد؟

ليست هناك سياسة تحتاج إلى تفسير، ليبقى حاكم عربي واحد مقتنع أنّ الصمت على الظلم منجاة! ولا من تحليل نفسي تكون نتيجته أننا لا يجوز لنا التمرد على باطل أمريكيا، ونكون مطايا خلف قراراتها المجحفة، والمنكرة لحقوقنا نحن العرب والمسلمين!

إنّ الناظر إلى ما يدور في العراق، يتفطر قلبه ألمًا، وحزنًا، ويتساءل: إلى متى سنبقى أرقامًا لا تستخدم في المعادلات الدولية؟ ولماذا يتحدّ الظالمون المعتدون على سلب حقوقنا وإراقة دمائنا، ونحن أوْلى في الوحدة والاتفاق؟ وإلى متى سيبقى العراق مذنبًا في نظرنا؟ وتبقى أمريكيا هي الدولة التي يحقّ لها أن تُقوّم اعوجاج المسلمين والعرب دون سائر البشر!

إنّ الذين يظنون أنّ التاريخ سيغفر لهم هذه الوقفات هم مخطئون! لأن المواقف حين تعني الجوع والتشرد والدمار ونهب الخيرات لا يمكن لها أن تذوب وتمّحي إلّا إذا ذابت ثلوج المحيطات المتجمدة دون أن تحصل كارثة!

إنّ إصرار زعمائنا على مشاهدة مسلسل البغي والعدوان على العراق ومن قبله في فلسطين ولبنان هو قرار بشرعية العدوان، وتصديق على شرعية سفك الدماء البريئة، وعندئذ لا يجوز أن نقول:

كيف الرجاءُ من الخطوبِ تخلّصًا   من بعد ما أنْشبنَ فيّ مخالبـــا

لأنّ الخطوب تترى على أمتنا، وهي لا تحتاج إلّا موقفًا حازمًا قويًّا نصّه أن دمار العراق وحصار أبنائه لا ينفع أحدًا سوى الذين جعلوا من أنفسهم فرعون

العصر! وهم الذين يؤذيهم أن يكون للعرب والمسلمين حضارة عريقة، ومجد مؤثل، وقوة ناهضة، وشعب ماجد!

ولماذا لا تكون معاناة العراق وفلسطين ولبنان الباب الرئيس الذي يجمعنا ويجعلنا جميعًا نفد البيت الواحد، فنجمع على نصرة الحقّ وصدّ الظالم، وكما قال الشاعر:

لا يجمع الشملّ إلّا مقصدٌ جللٌ يفدى حلالًا بأرواح وأجسادِ

وقد آن لحكام العرب أن يجتمعوا هذه المرة، ويخرجوا بما يلبي رغبة المواطن العربي، في نصرة العراق وفلسطين ولبنان، ويجمعوا على رفض الهيمنة الأمريكية على بلادنا، كي نثبت للعراق الأبي أن حقوقه مقدسة، وأنه سيبقى العمود الفقري للأمة العربية والإسلامية، بأرضه وشعبه وعلمائه وأدبائه وقوته!

تموز1996 صحيفة القدس

القدس... عروس عروبتكم

حين تكتبُ عن القدس الشريف لا تملكُ إلّا أن تخرج عن نمط الكتابة العادية، والتقليد المتبع؛ لأنّك تكون قد دخلتَ عالمًا آخر تكون فيه المعاني مشاعر جياشة، وسيلٌ جارفٌ، وتجدُ أنّ التاريخ يقرّ بعظمة الأشياء، وعندئذ تصبح الكتابة شدًّا للنفس، ودفعًا لها إلى السمو الروحي والإنساني. وتنتقل الألفاظ خلال ذلك من وظيفة الدلالة على المعنى إلى الدلالة على الشيء الذي لا يختزل في صفحة أو كتاب ما...!

كثيرًا ما يكون مقدار صدى الشيء نابعًا من حجمه؛ فيمكن قياسه وإدراك سرعته ومساحته، ولكنّ القدس شيء آخر كانت على مرّ الزمن درّة المدن، وإكليلًا على جبين التاريخ، وما تزال عظمتها ومكانتها لا تقاس بشيء واحد، وكان تميزها في قانون السماء سببًا لتميزها في قانون الإنسانية، ما جعلها تتحول في موقعها وقداستها من حجارة وطرقات ومساجد وبيوت إلى عناصر رئيسة لا تستقيم حياة المسلمين دونها، مثل الماء والهواء والشمس؛ لأنها جرت بعروقهم، فنشؤوا على محبتها، وتعظيمها، وعاشوا برحابها ردحًا من الزمن، واستلهموا من قداستها غذاء الروح وقربى إلى الله حتى ارتبطا معًا ارتباط الروح بالجسد، والعالم بالحياة!

كانت القدس مشعلًا روحيًّا وإنسانيًّا يصعب فصله عن الوطن الأمّ، ويستحيل سلخه عن الأرض والإنسان، فهي فخرنا الذي نستلهم منه الثبات والقوة، وميزاننا الذي نقيس به مقدار العزة والكرامة والسمو؛ لذا كان الدفاع عنها دفاعًا عن وجود الإنسان وعن دينه ومعتقده ونشأته وثقافته وحضارته...!

لا أريد أن نعود مرة أخرى لنفتش حقائب التاريخ لنتأكد مما نذهب إليه؛ لأننا في هذه الأمة المسلمة مقتنعون جيدًا أنّ أعداءنا لم يتوقفوا عن الكيد بنا، ولن يتوانوْا

عن السعي الدؤوب لطمس معالم هذه المدينة المقدسة، وتراث حضارتنا، سواء أكان ذلك بمطاردة المسلمين وإبعادهم عنها، أو قتلهم وتدمير بيوتهم، أو تخريب مناحي حياتهم والاعتداء على حقوقهم في العيش والبناء، وذلك كي تبقى قضية القدس في وادٍ سحيق لا يصل إليه جانٌ أو عفريت.

أعداؤنا مقتنعون أنّ الزمان الذي دار لهم وركبوا صهوته، فسادوا وظلموا على غيرهم من أبناء شعبنا وأمتنا لن يستقيم لهم زمنًا طويلًا، وسيقلب لهم ظهر المجنّ، والأمة التي أصابتها حالة غفلة وسبات، ستستيقظ يومًا ما، ويعيدوا عنان الزمن إلى أيديهم، ويعيدوا ما فقدوا من عزة وكرامة وسموّ!

إنّ ما يحدث في القدس الشريف اليوم، من بناء متسارع لحركة استيطان عاتية لم تقف عند ضواحي القدس، بل وصلت إلى منازل المقدسيين، وقبور الصحابة والتابعين، والحفر أسفل المسجد الأقصى تمهيدًا لهدمه مرة واحدة، لن تقدر على تغيير شيء من حقوق المسلمين عامة والفلسطينيون بخاصة، ولن تغيّر في إيمان أصغر طفل عربي مسلم أن القدس لها وجه غير عربي إسلامي... ولن تستطيع أن تطفئ نار الغضب والثورة الذي اشتعل حبًّا للقدس وذودًا عن ترابها المقدس...!

لقد هبّت عاصفة الغضب من جديد في كل المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية أمام المحتل لتثبت أن القدس ما تزال أرضًا فلسطينية إسلامية، ورفضًا لسياسة التهويد والبطش وتغيير المعالم التاريخية. وأكّدت الجماهير الفلسطينية وحدة أرض الوطن، وقداسة ثراه، فقدّمت عشرات الشهداء ومئات الجرحى والأسرى...!

لكننا والحق يقال، إننا في معركتنا هذه نحتاج لمن يشدّ أزرنا، ويربط على قلوبنا، ويمدنا بالعون المادي والمعنوي، فالمسألة ما عادت تحتمل الصمت، ولا الجنوح لسياسة الحياد القاتلة، خوفاً من تلك، أو إرضاء لذاك!

والمؤلم أننا سمعنا من قادة الأتراك تهديدهم بقطع العلاقة مع المحتلّ إن استمرّ في عدوانه وبطشه، في حين لم نسمع مثل هذا من دول عربية ومسلمة! وهم الذين انفتحت أبوابهم مع المحتل جهارًا نهارًا، على عدوانه وبطشه وظلمه!

نريدُ لضمائر العرب والمسلمين أن تستيقظ وتتحرك لنصرة القدس وفلسطين قولًا وفعلًا، فهي الحاضنة الأولى وعليها المعتمد، فإنْ لم تتحرك لصالح أولى القبلتين وأهلها فلن يتغير شيء في المعادلة الدولية، وسيبقى المحتلّ يصول ويجول ليس في القدس فقط ولا في فلسطين، بل ربما سنراه في أرضًا عربية أخرى، وعندئذ سيصدق فينا المثل "أكلتُ يوم أكل الثور الأبيض"، فهنا شعب يثور لحقه وكرامته وهي جزء من كرامة الأمة، ويأبى الركوع والاستسلام، فحري بإخوتنا العرب والمسلمين النصرة والعون؛ لأنهم لا ينتصرون لنا فقط؛ بل لعزتهم ومقدساتهم أيضًا!

تشرين أول 1996م. صحيفة القدس

طريق... الآلام...!

حين تشتعلُ فيك مشاعرُ الشوق والحنين، اخرجْ من حجرتك، وسرْ في أرض هذا الوطن! وتذوق عبق الروابي وهي تتنفس وتبث عبر الهواء رائحة الأصالة والتراث، من أعالي الجبال الممتدة، والهضاب الراكدة، والسهول الضاحكة، ففوق كلّ ذلك، أشجار الزيتون، واللوز والتين، وكروم العنب، ونبات الصبّار والمرار والسريّس، عندئذ تشعر أنّك لا تتنفس الأوكسجين الصرف، بل الحرية وجمال الوطن...! كانت في الأصل زيارة لمربٍ فاضل يرقد في مشفى العيون في القدس، ثم تحولت إلى قراءة معنى من معاني أن تكون تعيش في وطن مسلوب، وأرضٍ محتلة!

كانت السنينُ تمضي، تتراكضُ، والوطنُ بعيدٌ نقرؤه عن بعد، من خلال الإذاعات وصفحات الجرائد. واليوم قضينا في بقعة منه يومًا كاملًا، كان اليوم كالتاريخ الذي يصوّر وتراه بأمّ عينيك وأنت في الحافلة تنظر هنا وهناك!
كنّا سبعة أشخاص، وبعضنا لم يزر القدس منذ ما يزيد عن عشر سنين، كانت المسافات طويلة، لكنها ممتعة جدًّا، ففي السفر تجذبك الأشياء، وتمنعك من الحديث، تخرجُ للدنيا لتتكلم وتقرأ الأمور وتفهم الواقع من خلال البصر...!

السفرُ الجميل كالحلم الذي تتمنى ألّا يكون له نهاية، فيه تنعم براحة الفكر، وسعة المخيلة، ويقظة الذكرى، كلّ ذلك في نشوة عارمة، وغبطة حالمة...!
كانت النفوس هكذا، حتى إذا اجتازت الحافلة حدود المدينة، وظهرت الحواجز وقبعات الجنود من المحتلين، يطاردون الأحلام، ويعبثون بالذاكرة، فتشعر أن هذا الوطن الواسع صار يصغر، فإذا هو حدود من حديد تفصل كل عضو عن أخيه، فلا يستطيع الحركة إلّا بإذن مسبق، وتصريح مختوم!

كانت المسافة طويلة، والقرى الوادعة تترامى هنا على التلال، وهنا على مشارف الطريق، بينما تتربع المستوطنات ومعسكرات المحتلّ فوق القمم، تنشقّ لها الطرق، وتتلوى كأفعوان يحيط بخاصرة الأرض، فتذوب مزارع الفلاحين، وحقولهم تحت عجلات الجرافات والسيارات العسكرية!

لا تملك وأنت تشاهدُ هذه القيود والسلاسل إلّا أن تغمض عينيك، فأنت أمام منظر مرعب، يثير الأسى والألم، ولا يتركك إلّا في دوامة التساؤلات لتستنتج بعد ذلك أن الذي يريد السلام لا يمكن له أن يمارس أبسط عمل من أعمال الظلم والعدوان، فكيف به وهو يقتل الإنسان، ويمنع عنه الهواء والماء، ويزوّر معالم التاريخ!

بقينا في سرحان مطبق، حتى وصلت الحافلة إلى منطقة الرام وهي قريبة من القدس الشريف، وهناك على الطريق وضعوا حاجزًا دائمًا يمنعون فيه أبناء الوطن من الوصول إلى المدينة! إلّا الذين حصلوا على تصاريح مسبقة! تذكرتُ بلدان أوروبا، وكيف أن صديقي الذي درس في ألمانيا استطاع أن يزور أغلب الدول الأوربية دون تصريح أو إذن مسبق !! تلك أوروبا التي لو قيس هذا الوطن بها لكان بقعة صغيرة من مساحتها المترامية، كيف تركض الظباء في الصحراء حرّة طليقة، وتريد أن تضع لها الحواجز حين تصبح في قبضتك! أمن السهل أن تغير سنّتها؟ أو تبدّل فطرتها؟ نحن يا صديقي كالظباء الحبيسة أو كالعصافير المقيدة، لكننا بشرٌ كباقي الخلق، لم نخلق عبيدًا لأحد، فمن يستطيع أن يملأ حياتنا مصاعب، لن يستطيع أن يثنينا أن نعشق الحياة في هذا الوطن، حياة عزيزة حرة كريمة!

كنّا بعد الزيارة عازمين على الوصول إلى المسجد الأقصى المبارك، لتأدية صلاة الجمعة. إنّ الزائر بحاجة لقلب صبور، ونفس هادئة وهو يمشي بين الزحام، زحام الناس العابرين، بين شوارع القدس القديمة، وجموع الجنود المبعثرين عند كلّ مدخل، لذا سرنا بين الأزقة الضيقة، واسترنا بالبيوت العتيقة المنيفة، نتنقل من زقاق إلى زقاق، وكأننا هاربون لا قادمون! وحين بدأت أفواج المصلين الزاحفة

تتقاطر من باب العمود، هَدَأ روعُنا، وابتسمنا ملء الفم، وعلمنا أننا في الاتجاه الصحيح.
في الطريق إلى باب العمود، كانت هناك يافطة صغيرة كُتِب عليها "طريق الآلام"، فسألنا كبيرنا عن ذلك، فقال: إن الناس يقولون هذه الطريق سار بها سيدنا المسيح -عليه السلام-، ولعله تجرع المعاناة والألم حتى أطلق الناس بعده على هذه الطريق هذا الاسم! والعجيب أن هذا الطريق لم تنتهِ الآلام فيه بانتهاء السيد المسيح، بل أصبحت طرق القدس كلها، محفوفة بالآلام، يعاينها المواطنون حين يدخلون وحين يخرجون. بل إنّ طريق هذا الوطن أصبح مزروعاً بالأشواك والأحزان... طريق لا يتغير مرآه، تطول مسافته، وتتضاعف معاناته، لكنه يظل رغم ذلك كله خيار الشعب الوحيد، ولا مناص من الصبر والثبات!
للقدس معنى آخر، ولد مع الحضارات، وتعاقب مع الأزمان، تلمسه وأنت تمشي في أزقتها، وتنظر إلى الأسوار الشاهقة القوية التي لو أتيح لها أن تتكلم لملأت الكون مجدًا وفخارًا تارة، وصراخًا تارة أخرى!

صحيفة القدس كانون ثاني 1996م

على هامش السلام...!

إنّ المطلوب من أيّ سلام يوقِّعُهُ طرفان أو أكثر، أن يحقق الأمن والازدهار والحرية، وأن يعيد الحقوق التي سُلبتْ إلى أصحابها الشرعيين؛ فإذا أقدم أي طرف على توقيع ذلك، فحقّ عليه أن يلتزم بما تعهد به، ويفي بتعهده، فذلك كفيل أن يضمن تحقيق السلام المنشود.

الناظر فيما يحصل في الساحة الفلسطينية لا يكاد يعثر على قرار واحد قد جرى الالتزام به إسرائيليًّا؛ بصرف النظر أكان هذا القرار مقبولًا فلسطينيًّا أم غير مقبول! فساسة إسرائيل لم يغيروا من سياستهم شيئًا قبل المفاوضات أو بعدها، وهم رغم ذلك يطلبون من سلامهم المزعوم أن يحقق لهم الأمن والانفتاح والازدهار، كأنّ القرارات الصادرة تنطبق فقط على الفلسطينيين وحدهم!
الإسرائيليون لا يريدون أن يعطوا شيئًا، مما سلبوا وصادروا، ويريدون من قرارات الحبر والورق أن تحقق لهم الأمن والأمان وتضمن سيطرتهم على الأرض والحدود دون أن تغير في نفوسهم شيئًا...!

إنّ حمل السلام وعملية المخاض الطويلة، لم تنجب شيئًا لشعبنا وأمتنا، غير عودة بعض الفلسطينيين إلى وطنهم، فيما لا يزال عدد كبير منهم في المنافي وسجون الاحتلال.
لم تنظر إسرائيل ولا أمريكيا حين أرادتا صنع السلام المزعوم إلى الفلسطينيين كشعب أمضى مائة عام تقريبًا تحت نير الاستعمار ثم الاحتلال، أو كشعب فقدت أرضه، وانتهكت حرماته وحقوقه، ولم تقولا إنّ شعبًا كهذا يستحق الأمن

والاستقرار، ويستحق قبل كلّ شيء الانعتاق من قبضة الاحتلال البغيض، كباقي الشعوب التي ناضلت، وضحت، لكنها حصلت على الاستقلال بعد ذلك.
إن سياسة أمريكيا وإسرائيل الحالية تثبت لمن كان متشككا في جدوى المفاوضات أن شكوكه في مكانها صحيحة، وأنّ الذين بنوا أحلامًا في الهواء، كانت أحلامهم أوهامًا غير قابلة للتطبيق.

إنّ ما تطالب به أمريكيا وإسرائيل من حفظ للأمن، واعتقال للإخوة المناضلين الذين تعدهم خارجين عن القانون، هو كمن يطلب من حالة الطقس أن تستقيم على درجة حرارة واحدة صيفًا وشتاءً، دون أن يأخذ بعين الاعتبار حركة الأرض، وقوة الرياح، وارتفاع الموج، ودوران الفصول...! وهي في حقيقتها مطالب تصب في صالح طرف واحد، هو المحتلّ، وكأن هذا السلام ولد ليقول: يا إسرائيل القوية، سأجعلك تنامين نومًا هادئًا، وتأمنين ما كنت تخشين من الثورة أو الانتفاضة، فقد أتيت لك بحرّاس يحمون أبناءك، ولن تخسري شيئًا، فهم الذين سينفذون وعليك أن تطلبي ما شئت منهم!
لقد مضى أكثر من عامين على مفاوضات أوسلو، وبدأت الغيوم تتفرق من حول الحقيقة، كي تظهر بأوضح صورة، وحين ننظر إليها نراها لا تحتاج لتفكير وتدقيق؛ فإسرائيل ما تزال تظنّ نفسها هي الأقوى، والقادرة على فرض السلام الذي تريد، وهي تستخدم كوابح السلام المصطنعة من أموال المانحين الأوروبيين، وما تقوم به من مداهمات لبيوت الفلسطينيين، وسيطرة على الطرق، وزرع المزيد من البؤر الاستيطانية في أنحاء الضفة الغربية. وهي في الوقت نفسه تعلم جيدًا أن ليس في وسعها أن تحقق الأمن لنفسها ما لم تعطه لغيرها، فما تزال الأوضاع في داخل فلسطين وخارجها في لبنان وسوريا تعيش درجة عالية من التوتر، وهي قريبة من الانفجار الكبير، وعندئذ ستعي إسرائيل أن ما تشعر به من قوة هو حالة تمدد مؤقتة، لا سبيل للعيش فيها مدة طويلة فمرحلة الستينيات انقضت، ولا يمكن الرجوع للخلف، واستعمال مقاييسه وموازينه، في

وقت أصبح السلاح شرعيًّا في الضفة والقطاع، بأيدٍ فلسطينية، وحزب الله يزداد قوة، ويحقق الانتصار تلو الانتصار على جنودها في جنوب لبنان...!

إنّ السياسة المزدوجة المجحفة بحق شعبنا الفلسطيني وأمتنا العربية، التي تمارسها إسرائيل ومن خلفها أمريكيا لن تستطيع أن تحقق الأمن للمحتل، ما دام الضعيف يحاسب على أصغر ما لا يستطيع القيام به، بينما يصول القوي الباطش ويجول قاتلًا وناهبًا وآسرًا.

هذا الوضع المعقد، يفرض على الدول التي رعت المفاوضات وما تزال ترعاها أن تحسن البحث في أسباب التوتر الحاصل، وتعالج الأسباب قبل أن تنظر في المسببات. وعلى إسرائيل أن تعي جيدًا أن هذا الشعب الذي هضمت حقوقه، وصادرت أرضه، واعتقلت أبناءه لا يمكن له أن يتخلى عن هذه الحقوق البتة، وتعي جيدًا أيضًا أن فرصة السلام هي شيء نادر وثمين لها، لن يجود الزمان بمثلها لعدو اقترف كما اقترفت، وأفسد كما أفسدت، وسلب كما سلبت، فإن تغير الحال يومًا وهو سيتغير، فلن تجد أحدًا يمدّ لها يدًا إلّا للمبارزة والثأر...!

إنّ على قادة إسرائيل أن يدركوا جيدًا أنه إذا كان هناك أمن إسرائيلي مهم فهناك أيضًا أمن فلسطيني وعربي، وهناك حقوق ما تزال موضوعة على الرف، لم تناقش على طاولة المفاوضات، لذا لن تجدي سياسة اللامبالاة والبطش التي تمارسها إسرائيل بحجة الأمن. وكما قال الرئيس السوري حافظ الأسد: "إن إسرائيل التي تملك أكثر من مائتي قنبلة نووية تستطيع بها أن تمحو تضاريس الوطن العربي ما تزال تخشى من تطور السلاح في البلاد العربية والإسلامية، وما تزال تحسب ألف حساب لراشقيْ الحجارة"، وهذا يعني أن عقدة الشعور بالأمن لديها ناتجة عن عقدة الشعور بالذنب الذي لا تستطيع الإقلاع عنه؛ لذا تعيش الخوف والارتباك في حياتها، وستبقى كذلك ما دامت تفكر بدماغ القتل والبطش والإفساد!

إنّ المطلوب من شعبنا ألّا ييأس أبدًا، وألّا يتنازل عن حقّ من حقوقه التي بذل من أجلها كلّ غالٍ ونفيس، طوال عشرات السنين، حتى تفهم إسرائيل أن المسألة مسألة حقوق وأرض وشعب ومقدسات، وليست مسألة أمنٍ لها وحدها فقط!

تموز 1997 صحيفة القدس

الاستخفاف الأمريكي والردّ عليه...!

"قال الطالبُ الفتى لأستاذه الشيخ: ما تأويل هذا البيت من شعر الحماسة:

فازجرْ حماركَ لا يرتعْ بروضتنا إذن يردّ وكيدُ العير مكروبُ

قال الأستاذ الشيخ: هذا مثلٌ أراد به الشاعر تصوير قدرته على عقاب من يعتدي عليه، وما أكثر الحمير التي ترتع في رياض الناس هذه الأيام فلا تجدُ من يردّها"!

ولا أجدُ حالًا يوافق معنى هذا البيت أكثر من أحوال أمتنا هذه الأيام، إذ إنها تعيش واقعًا في غاية السوء! واقعاً تُنتهكُ فيه كرامة المواطن وحرمة الأرض، فالفلسطينيون ما يزالون يعانون بطش الاحتلال وهجمة الاستيطان الشرسة التي لا يمضي يومٌ إلاّ وتصادر فيها الأرض، وتهانُ فيها الحقوق وتنتهك. وليس حالنا هنا في فلسطين بأفضل من حال أهلنا في أرض العراق التي يدنّسها جنود الاستعمار الجديد من أمريكيين وأوروبيين، وشبيه بذلك ما حصل في السودان حين هاجم المتمردون المدعومون من أمريكا وإسرائيل أرض السودان وعاثوا فيها فسادًا.

ومثل ذلك يحصل في أفغانستان وباكستان والشيشان والبوسنة، فخارطة العدوان واحدة لا تحتاج لتفسير، والمستهدف الوحيد هم المسلمون والعرب الذين يدينون بالإسلام، ولعلّ هذه الحلقة الجديدة تراها متصلة بحقب التاريخ الماضية، ولا ينتفي الفرق بينهما إلّا أننا أمّة مهزومة من الداخل؛ ففي السابق كانوا أمّة فاعلة دافعت عن وجودها وحقوقها ومستقبلها، واليوم لا ندافع عن شيءٍ اللهم إلّا عن أن نعيش ونأكل أيّ عيش وأيّ أكل!

هذه صورة تتصل بهوان الأمة، وضياع حقوقها، وهدر كرامتها، وهناك صورة لا شك أنها أكثر إيلامًا على الرغم من اتصال الصورتين ببعضهما؛ وهي الاستخفاف والاستهتار بقيمة الأمة ووجودها، استخفاف جعل الحمير الضالة والكلاب تستبيح حماها دون زاجر، والذئاب تنهش كرامتها دون رادع! وما تزال هذه الصورة قائمة ونشطة في السياسة العالمية أمام الشعوب الضعيفة المبعثرة!

لقد أصبحت الأمة العربية والإسلامية معاجين سهلة قابلة للضغط والانصهار وفق رغبة المستعمرين الطامعين في خيراتها، ففي البدء أسقطوا دولة الخلافة في الحرب العالمية الأولى، ثم زرعوا كيان إسرائيل في قلب هذا الوطن الكبير، ثم صنعوا لعبة السلام لترسيخ دعائم كيان الاحتلال، وزرع الشقاق في صفوف الفلسطينيين أولًا والعرب أخيرًا، واستطاعوا أن يجعلوا من كيان الاحتلال حمْلًا وديعًا في أعين كثير من الأنظمة العربية، ففتحوا له الحدود والأسواق والأموال ليعيش هنيئًا بصرف النظر عن واقع الضحية الذي وقع في الفخّ ولم يرَ من السلام إلاّ ضياع الأرض، وقتل الأبرياء، وزيادة الحواجز بين مدنه وقراه، وخنقه اقتصاديًّا وجغرافيًّا وثقافيًّا!

لكنّ مضي السنين كان كافيًا لكشف النوايا الخبيثة، وبطلان هذه الأساليب، وفساد هذه المفاهيم التي ما إنْ نوقشت وتحركت حتى أظهرت أنّ الهدف الأساس هو زيادة الانقسام في العالمين العربي والإسلامي، وإسكات بعض الأصوات التي ترفض أن تصبحَ إسرائيل حبيبًا شرعيًّا ظاهرًا. كانت سياسة الاستخفاف والتسويف أكبر شاهد أن القصد ليس صنع سلام عادل بل لتكون إسرائيل دولة معترف بها من جيرانها العرب والمسلمين، وإنهاء حالة العداء في الشرق الأوسط...!

إنّ العرب أعطوا كل ما يستطيعون في هذا السلام، لكنهم لم يأخذوا شيئًا، بل جلبوا لبلادهم التشتت والانقسام، ونمّوا الحقد والكره بين الحاكم والمحكوم، فسوريا أصبحت دولة منعزلة محاصرة سياسيًّا، أو خارجة عن القانون، ومصر بين خطين أحدهما يشدها للأمة التي تنتمي إليها، والثاني مصالحها مع أمريكيا صاحبة الديون وراعية السلام، والعراق غارق يداوي جراحه التي أثقلته بعد حرب الخليج، والبقية الباقية من الأمّة في سهر ولعب ولهو بعيدون عن الصراع وأصواته ، فليس لهم فيه لا ناقة ولا جمل، لا تعنيهم العراق ولا فلسطين بشيء!

إنّ قضية الاستخفاف التي تتعامل بها أمريكا وإسرائيل وتستندُ فيها إلى الشعور بالقوة والعظمة هي التي أوصلت الأمة إلى هذه الدرجة من التراجع والانكسار حتى ما عاد يحسب حسابها في شيء مما يجري في العالم وإن كان يخصها!

واليوم يظهر مدى تمسك هاتين الدولتين بهذه السياسة بشكل ساخر مثير للحزن والغيظ، إذ نرى إسرائيل تسير في طريق تهويد بقية الأرض الفلسطينية، وتصادر المزيد من الأرض، وتزرع المستوطنات، وتشقّ الطرق، وتقيم ما تشاء غير آبهة بما وقّعته من عهود ومواثيق، أو مراعية لحرمة أية قوانين دولية أو أعراف إنسانية، وهي تقول على الملأ أنها لن تتخلى عن أطماعها في التوسع والبناء والمصادرة رضي العالم أم لم يرضَ، وهي تعلم علم اليقين أنْ لا قوة تستطيع أن تثنيها عن ممارساتها ما دامت أمريكا تحتضنها هذا الاحتضان المجنون!

ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ من الاستخفاف، بل تبلغ الأمور ذروتها ويزداد الطين بلّة حين تقرر أمريكا نقل سفارتها من تل أبيب إلى القدس وهو الأمر الذي كانت قديمًا تحاذره، لكنها اليوم تسير فيه وكأنها تعلن موت الأمة على الملأ؛ لأنّ الأمة حين تموت لا يكون لها ردّ فعل أبدًا، وكأنّ هذا ما شعرت به أمريكا فأقرّت قرارها غير مبالية بشيء!

ونسأل: ماذا تريد أمريكا من قرارها هذا؟ ونحن قبل أن نسأل أمريكا علينا أن نسأل العرب ماذا بوسعهم أن يفعلوا؟ إذا ظُنَّ بهم الموت فلا يتحركون ولا يثورون، فهم مدعوون لإثبات وجودهم أولًا ثم إثبات انتمائهم لعروبتهم ودينهم وإن لم يفعلوا فظنّ أمريكا بموتهم صحيح، وهم غير مطالبين بشيء!

لقد أضاع العرب بسبب بعدهم عن دينهم وعادتهم وتقاليدهم سنين طويلة ما تزال تثقل كاهل التاريخ، وأرضًا ومقدسات ما تزال تئن تحت الغزاة، وحقوقًا ما تزال تغتصب وتمتهن إلى ما شاء الله، وخلّفوا في ركضهم خلف الغرب جيلًا من أقلّ الأجيال انتماء وإخلاصًا وتضحية، وأصبح المواطن العربي في أرضه غريبًا كما قال المتنبي:

ولكنّ الفتى العربيَّ فيها غريبُ الوجه واليد واللسان

نقول في الختام، على زعماء العرب والمسلمين إمّا أن يعلنوا صراحة أنهم براء من هذه الأمة الأصيلة أو أن يثبتوا أنهم قادرون على إنهاء مسلسل الاستخفاف الذي تمارسه أمريكا بحقهم وبحقّ شعوبهم، ويعلموا أنّ هذه الشعوب الراكدة لا يمكن لها أن تجمع على ضلال، ولا بدّ لها أن تقذف الزبد وتثور، وعندئذ لن يبقى شيئًا يندمون على ضياعه أو خسرانه...!

صحيفة القدس، تموز 1997م.

قراءة في انتفاضة الأقصى المباركة...!

لم يتعلم المحتلّ الإسرائيلي الدرس جيدًا، لا من الماضي البعيد، ولا من الماضي القريب؛ وكأنه في كلّ فترة أو بضع من السنين يريدُ أن يقيس درجة الاحتمال لدى هذا الشعب! درجة الصبر، ونوع الانفجار الذي يمكن أن يلجأ إليه.

في عام 1987م، تعمّد سائق شاحنة إسرائيلي قتل مجموعة من العمال الفلسطينيين في غزة على حاجز (إيرز)، فاندلعت الانتفاضة الأولى؛ انتفاضة الحجارة بدءًا من مخيم جباليا في غزة ثم عمّت المدن والقرى والمخيمات، من غزة حتى جنين، فتحولتْ حياة المحتلّ في الأرض الفلسطينية إلى جحيم لا يطاق، وجَهِدَ بكل طاقته إلى إخماد جذوتها، غير أنه لم يفلح رغم استعماله كل الوسائل التي يمتلكها، من القتل والأسر والمطاردة وفرض منع التجوال ثم اتباعه سياسة تكسير العظام، إلّا أنّ الانتفاضة استمرّتْ، وحققت إنجازات كثيرة، لعلّ أهمها تعزيز وحدة الشعب الفلسطيني في غزة والضفة وأراضي 1948م، واللاجئين في مخيمات الشتات والمنافي، واستطاعت أنْ تكسب التأييد العالمي، والدعم العربي، وتعيد القضية الفلسطينية إلى الواجهة، وتضع أمام العالم أجمع عبئًا ثقيلًا من المسؤولية يفرض عليه أن يوجد حلًّا عادلًا لهذه القضية التي طال أمدها، وهي ما تزال في مكانها.

وبصرف النظر عن النتائج التي أسفرت عنها تلك الانتفاضة، من توقيع اتفاقية أوسلو، ومعاهدة السلام، ودخول القيادة الفلسطينية إلى فلسطين، وإنشاء السلطة الوطنية الفلسطينية؛ فقد تخطّت هذه الانتفاضة أربعة أعوام ونصف، وكان بوسع القيادة الفلسطينية لو وجدت ضغطًا عربيًّا ودوليًّا أن تحقق كثيرًا مما كان يطمح إليه الفلسطينيون، لكنْ كان في الأمر عجلة فلسطينية، وتهاون عربي، وعدم اكتراث دولي... كل ذلك أبقى أبواب الصراع مفتوحة بين حين وآخر.

وفي عام1996م قرر الاحتلال الإسرائيلي فتح نفقٍ أسفل المسجد الأقصى، فاندلعت مواجهات عنيفة عمّت كثيرًا من المدن والقرى. وبخاصة في غزة والقدس ورام

الله ونابلس، وأسفرت عن استشهاد ثلاثة وستين فلسطينيًّا وإصابة ألف وخمسمائة بجراح مختلفة، وقتل أكثر من عشرين إسرائيليًّا في تلك المواجهات.

وبعد ذلك تواصلت الاجتماعات الفلسطينية الإسرائيلية أملًا في الوصول إلى حلّ للصراع، وكانت محادثات كامب ديفيد هي التي كشفت وهم السلام المزعوم الذي تدعيه إسرائيل ومعها أمريكيا، فلم يعرض على أبي عمّار في تلك المفاوضات الحد الأدنى الذي يلبي طموح الفلسطينيين، فقد رفض قادة إسرائيل تقسيم القدس، وعودة اللاجئين ، والإشراف على الحدود، وإزالة جميع المستوطنات من الضفة الغربية، وأن تكون هناك دولة فلسطينية ذات سيادة فوق الأراضي التي احتلت عام 1967م، وانكشف المستور من نواياهم التي كانت تُغلّفُ بسياسة المماطلة والتسويف، مع الاستمرار في بناء المستوطنات في الضفة الغربية، وسياسة التضييق والحصار الاقتصادي، ثم عودة القيادة الفلسطينية من محادثات كامب ديفيد وهي تحمل اليأس والإحباط من تلك المفاوضات، فأدرك الفلسطينيون عقم السلام، وعدم جدوى إضاعة الوقت في مفاوضات لم يروا منها إلّا آمالًا نائية، ووعودًا تتبخر، واحتلالًا يزداد تمددًا في الأرض... كلّ ذلك كان يدفع الأمور نحو مواجهة حامية الوطيس. وزاد الطين بِلّة أن قام أرئيل شارون ومجموعة من حرّاسه بتحدي مشاعر المسلمين بالدخول إلى ساحات المسجد الأقصى، في 2000/9/28م، فتصدى له المصلون في المسجد، ودارت مواجهات عنيفة بين حرّاسه والمصلين، استشهد فيها أكثر من عشرة وأصيب المئات، وما إنْ تناقلت وسائل الإعلام الخبر حتى خرج الفلسطينيون في مدن الضفة وأراضي 1948م إلى الشوارع والحواجز العسكرية واشتبكوا مع قوات الاحتلال، وكانت هذه بداية اندلاع انتفاضة الأقصى.

لقد صُعق العالم أجمع من قوة ردّة فعل الشارع الفلسطيني التي قُدّر لها أن تُحرّك الشارع العربي، فينطلق الآلاف في العواصم العربية وغيرها من المدن في مسيرات تندد بجرائم الاحتلال، وتدعو إلى دعم انتفاضة الفلسطينيين، وقطع العلاقات مع إسرائيل، وفتح باب الجهاد من أجل تحرير فلسطين. وقد اعترف

قادة الاحتلال أن هذه الانتفاضة جلبت لهم مخاطر لم يروها منذ عام 1948م، ولم يكونوا يحسبوا لها أيّ حساب، فقد استطاعت التأثير في مستويين وهما: عرب فلسطين المحتلة عام 1948م، فقد حركت الانتفاضة وسقوط الشهداء في المسجد الأقصى والمدن الفلسطينية، مشاعر الجماهير العربية الفلسطينية داخل تلك المناطق، تلك الجماهير المكبوتة التي كانت تُخزّن حزنها عبر السنين، وتكتم ما تلاقي من سياسة التفرقة العنصرية التي يمارسها المحتلّ بحقها، وسياسته البغيضة في تذويب حقوقها، وإهمالها، وبثّ السموم في صفوفها. كانت تلك الجماهير تخبّئُ كلّ ذلك ليوم يبلغ سيل ظلم الاحتلال الزبى، وقد بلغ مداه في انتفاضة الأقصى، فهبّت تمطر المحتلّ بشآبيب غضبها، وتغلق الطرقات الرئيسة بين المدن، وتشعلُ الأرض نارًا بوجهه، ونتج عن ذلك أن شعرت إسرائيل ولأول مرة أنها في ورطة كبيرة، فالطرق بين المدن مغلقة، وهي بحاجة أن تواجه غضب الفلسطيني في الناصرة وحيفا ويافا وعكا وأم الفحم وسخنين قبل أن تواجهه في القدس ورام الله ونابلس وجنين والخليل وغزة وغير ذلك من المدن والقرى والمخيمات!

أمّا المستوى الثاني فهو قوة الانتفاضة في المدن الفلسطينية وقراها ومخيماتها، فقد تحولت المواجهات من رشق بالحجارة إلى إطلاق نار، وهجوم على الحواجز العسكرية، ثم المستوطنات، ثم نصب كمائن لدوريات الاحتلال وسيارات مستوطنيه، وأعقب ذلك كله أعداد العمليات الاستشهادية التي نشرت الذعر والهلع بين اليهود في كلّ مكان يتواجد فيه في فلسطين؛ في يافا وحيفا وتل أبيب والقدس وغير ذلك من مناطق. وما واكب ذلك من وقفة جماهيرية عربية، بقيت تتصاعد في المدن العربية، ولم تقتصر هذه الوقفة على بيانات وخطب رنانة فقط، بل هتفوا للقدس ولفلسطين، وطالبوا قادتهم باتخاذ إجراءات سريعة لنصرة فلسطين، وقاموا بإحراق العلمين الإسرائيلي والأمريكي.

إن في الهبّة العربية الواسعة المؤيدة لكفاح الفلسطينيين، في انتفاضة الأقصى، دلالة أن العربي بدأ يدرك أن النظام العربي الذي يحكمه قد استسلم قادته بقيام

دولة إسرائيل، فوق التراب الفلسطيني؛ إذ هزموا في المعارك التي خاضوها؛ لأنها لم تكن معارك حقيقية، يُعدُّ لها مسبقاً بحكمة ورويّة، بل كانت أشبه بغارات قبائل تغيرُ على بعضها، وقد تمكّن العدو بدعم من القوى الاستعمارية على مدى سنين طويلة من إخضاع بعض قادة العرب، وكسب ودّ بعضهم، وتغيير مفاهيمهم في الصراع العربي الإسرائيلي، حين أقنعهم بفشل الخيار العسكري وسيلة للوصول إلى حلّ القضية الفلسطينية.

لذا تراكضوا نحو إسرائيل، واعترفوا بوجودها، وفتحوا لها سفارات في عواصمهم، وأقاموا علاقات تجارية معها. وكانت اتفاقية أوسلو هدية ثمينة لهم؛ لأنها أزاحت عن كاهلهم الحبّ الممنوع، فتنفسوا الصعّداء، وأصبحت علاقتهم بهذا المحتل نهارًا جهارًا، لا يشعرون بعيب، ولا يفكرون بعاقبة. وما يفعله هذا المحتل اليوم من جرائم بشعة بحق الفلسطينيين، وتنكر للسلام، وما يبديه الفلسطيني من جلَدٍ ومصابرة في المواجهات، يؤرقهم كثيرًا، ولا يترك لهم مجالًا للنوم العميق...!

لقد ركنت القيادة الفلسطينية أو أغلبها إلى أسلوب الحوار بعد الانتفاضة الأولى، بوصفه وسيلة أخرى لإعادة الحقوق، ووقّعتْ معه اتفاقيات كثيرة معقودة بمواعيد زمنية محددة، كان يجب على المحتلّ تنفيذها كاملًا قبل أشهر من انتفاضة الأقصى، فالشعب الفلسطيني والعربي جلّه كان يتوق لرؤية بعض الآمال الفلسطينية تتحقق بعد سبع سنين من المفاوضات. لكنّ الذي تبيّن كما توقع كثير أن المحتلّ لا يفهم السلام كما نفهمه نحن، سلامًا عادلًا يضمن عودة اللاجئين إلى ديارهم وأراضيهم التي هُجّروا منها، وإعادة ما اغتصب من الأرض، وإزالة وجوده من الأرض الفلسطينية التي ستقوم عليها الدولة الفلسطينية؛ بل يريد المحتلّ أن يبقى محتلًّا، أمّا السلام الذي يفهمه فهو الذي يضمن وجوده وأمنه واستقراره، ويبقيه قويًّا ويبقينا ضعفاء، يفعل ما يشاء بأرض غيره، ولا

يحقّ لنا أن نفعل ما نشاء بأرضنا، يريد لنا حياة كما يحبّ هو، لا كما يعيش سائر الناس في العالم...!

إنّ هبة الجماهير الفلسطينية اليوم من أجل القدس تعبر عن فرط يأسها من الحالة التي وصلت إليها مع هذا المحتل، وهي في هبّتها هذه، تؤكد استحالة التعايش معه.

إنّ أكثر شعب خبر اليهود ومظالمهم هو شعبنا، لذا فإنّ من الحكمة أن نفيد من كل تلك التجارب الماضية، ونستخلص العبر والعظات، ونرسم لأنفسنا خطًّا واضحاً تلتقي عليه كل القوى الفلسطينية الفاعلة حتى تكون حركة الجماهير منظمة تسير في طريق شرعي واضح للجميع، ليس أقلّه دحر الاحتلال من أرضنا، وقلع مستوطناته، وإعادة القدس الشريف للسيادة الفلسطينية، واللاجئين إلى مدنهم وقراهم التي طردوا منها. ثم إقامة الدولة الفلسطينية على الأرض المحررة.

نحن بحاجة إلى إعادة تنظيم جديدة واعية دقيقة لما تشهده المرحلة الحالية، بما يخدم مصالحنا في التكيف مع وضع قد يطول كثيرًا، كي لا نُفاجأ آخر الأمر بشيء لم يكن في الحسبان، أعني بذلك الوضعين الاقتصادي والتعليمي؛ إذ لا بدّ من وضع برامج وخططٍ سليمة تسهم في إدارتهما إدارة ناجحة صحيحة، إذ إنّ أي خللٍ سيطرأ عليهما سينعكس في حياة الشعب المنتفض وأهدافه وأمانيه.

ما أحوجَ شعبنا الفلسطيني إلى وحدة حقيقية، تتجاوز الشعارات، والحزبية! إلى وحدة نلتف بها جميعًا تحت عَلَمِنا الفلسطيني فقط،

ولا نهتفُ إلّا لفلسطين، فهي هدفنا جميعًا، ومهوى قلوبنا، ومرأى عيوننا. لأننا في نهاية المطاف كلنا فلسطينيون، نكابد همًّا واحدًا وعدوًّا واحدًا، إننا حين نفعل ذلك نكون قد سرنا في الطريق الصحيح، ووضعنا لبنةً أولى في تأليف مجتمع فلسطيني واعٍ لواقعه وأهدافه، ونكون قد أغلقنا كل المنافذ التي ينفذ منها المحتلّ

وأعوانه، وشطبنا كلّ الحجج التي يلجأ إليها المتآمرون على قضيتنا، من أننا شعب منقسم، نحب السلطة والمال أكثر من الوطن...!

ما أحوجنا ونحن في مسيرة هذه الانتفاضة المباركة ألّا نسأل إلّا الله النصر، فلا نسأله من عالمٍ خذلنا غير مرة، في السلم والحرب، في المفاوضات والمجازر، فالله بيده كلّ شيء، مقلّب الأفئدة والأحوال، وقاضي الحياة والآجال، بيده النصر، والرزق والأموال.

والنصرُ مرهون بوحدتنا، وتقوانا، وإخلاصنا لأنفسنا، مناضلين ومواطنين، نقول ذلك، بعد أن جرّبنا كل الطرق في هذا الصراع. فلم نرَ غير الفرقة والهزيمة والبعد عن الوطن.

(نشرت في صحيفة نابلس 2001م)

أيها الفلسـطينيون... أوقفوا هذا الجنون...!

كثيرٌ منّا أصبح لا يصدق ما يحدث في هذا الوطن الجريح؟ هذا الذي كانت تضرب به الأمثال بالجَلَدِ والأثرة والتعاون والتكاتف ثم غدا يشكو من ظلم أهله، وتنازعهم على ملك مفقود، وعرش وهمي، ووزارات فقدت دلالاتها، وأصبحت تثيــر السخرية والضحك لدى المواطن الفلسطيني والعربي ولدى المراقب الأجنبي...!

أيعود الزمان إلى الوراء؟ وتغدو فلسطين الأندلس الثانية؟ بعدما تلاشت الأولى تحت حراب أهلها واقتتالهم فيما بينهم... حتى صار يصدق فينا قول الشاعر بعد ما حلّ بنا في غزة والضفة:

تلك المصيبةُ أنْسَتْ ما تَقَدَّمَها وما لها مَعَ طويل الدهر نِسيانُ

أم إننا سنجدد عهدًا تجاوزناه في لبنان أيام معارك (البارد والبداوي)، أم إننا في الأصل أناس يهون علينا كلّ شيء في سبيل رغباتنا الذاتية، التي إن جدّ الجدّ اعتلت منزلة الدين والوطن؟

المواطن الفلسطيني البسيط الذي أشابت قذاليه الأهوال والخطوب على مرّ السنين الماضية، أضحى غريبًا خائفًا حتى في وطنه؛ بل في بيته وسوقه ومسجده ومدرسته وجامعته، تأتيه الأخبار كل ساعة تفجّر رأسه، وتطيح بأحلامه، وتنسف آماله بقرب الفرج والخلاص!

أي بدعة هذه التي نشهدها، وتبتدعها هذه الجماعة أو تلك، ولا تعرف إلّا القتل والدمار وخطف الأبرياء وترويع الآمنين، وتلويث حياة الناس بدماء أبنائها وإباحة محارمها، وكأنها قادمة من الأدغال، ولا تعيش في أرض مقدسة مباركة، مضمخ ثراها بدماء الشهداء...؟

ما هذا الوطن الذي سيفخر بأبنائه الذين يقتتلون على سبب سواه؟ وأيُّ دين هذا الذي سيغفر لمن أشهر السلاح بوجه أخيه ليس نصرة للدين وعزة للأوطان بل نتيجة فورة جاهلية، وعصبية تمجّها الشرائع، وتنفر منها الألباب؟ قد يحدث

هذا الذي نراه ونشاهده في أيّ مكان في الأرض... لكن في فلسطين... لا يمكن أن يُقَبَل؟ ولا يمكن أن نقول إنه سيصبح عادة منذ اليوم وديدنا...؟ فهذا وطن عزيز غالٍ ما تزال دماء شهدائه حارة كما كانت، وما تزال معاناة أهله تكبر أمام الحواجز والممارسات التي يقوم بها الاحتلال كل يوم في كل قرية ومدينة، وما يزال أولئك الأهل يتنقلون من مصيبة إلى كارثة؛ من حصار إلى اجتياح، ومن ضيق إلى فقر، ومن خوف إلى رحيل...!

المواطن الفلسطيني والعربي يبحث عن إجابة كلما سمع خبرًا مفجعًا عما يحصل في غزة والضفة، إجابة عن سؤال يعنّ بباله ومفاده: لمصلحة من يحدث كل هذا؟ ومن أجل ماذا؟
أمن أجل عيون القدس؟ أم من أجل إزالة الجدار الفاصل؟ أم من أجل اللاجئين؟ أم من أجل إقامة الخلافة؟ أم من أجل كرسي صورة، يقبض عليها الاحتلال بأنيابه، فلا وجود لها في عيون المواطنين...؟
أم يسهم هذا الذي يحدث في ارتفاع نسبة المؤيدين لهذا الفصيل أو ذاك...؟ إن المواطن الفلسطيني لم يمقت الحزبية في حياته كلها كما يمقتها اليوم. هذه الحزبية التي حلّت مكان الدين والوطن، أو مكان الجرح والأمل. وهي التي أوقعته في هذه النكبات، ولم تحرر له مترًا واحدًا، ولم تردَّ له كرامة، أو تحفظ له ماء وجه...؟ لِمَ لا تكونون كما قال إبراهيم طوقان:

إنّ قلبي لبلادي لا لحزبٍ أو زعيم

فعمر المختار والقسام وفرحان السعدي وإبراهيم هنانو ويوسف العظمة أبطال الثورات المشهورة لم يكونوا ينتمون لفصيل ما، ولم يعرفوا غير هدف واحد هو النصر أو الاستشهاد، أم أنكم أكثر حكمة وعقلانية منهم؟ أم أوتيتم مجامع الكلم، وأحطتم بما لم يحط به أحد غيركم؟ فانظروا إلى أفعالكم وأفعالهم، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وقولوا غدًا أنكم كنتم تقاتلون من أجل الله أو من أجل هذا الوطن الذي جعلتموه قميص عثمان...؟

يجب أن يكون في هذا البيت الكبير صوت للعقل، ومجال للمراجعة والمحاسبة، فما يحدث من مصائب مزمجرة أضحى يهدّ كلّ شيء، فهذه حرب كحرب أبناء العمومة، كحرب بكر وتغلب، تعيدنا ألف ألف متر للوراء ولا تخطو بنا مترًا للأمام، وهي أشد ضراوة من حربنا مع الأعداء... فتنة سوداء ملعون من أيقظها، ومن يستطيع وقفها ولا يفعل...!

أليس من حق المواطن هنا ومن حقّ كل المناصرين لنا -بعد الذي جرى به القلم – أن يقول: كيف تطلبون من العالم نصرتكم والتعاطف معكم وأنتم على هذه الحال؛ تقتلون أنفسكم، وتدمرون مؤسساتكم؟ أليس من حقه أن يقول إننا لا نستحق شيئًا أمام هذه الصور المفجعة؟

وعلى هذا المواطن أن يتساءل أيضًا: كيف تصمد الهدنة مع الاحتلال شهورًا طويلة ولا تصمد مع أبناء جلدتنا وأخوة النضال بضع ساعات...؟ وأيًّا كانت الأسباب والذرائع هل يعقل أن نصل إلى ما وصلنا إليه؟

ماذا التقاطعُ في الإسلام بينكم   وأنتمُ يا عبادَ الله إخوانُ

أيعقل أن يعجز الكبار عن وقف هذا الجنون المفزع؟ أم أنّ الأمور خرجت عن السيطرة حقًّا؟

لا أعتقد ذلك، وما أزال كغيـري أرى أن طريق الصف الواحد، والعودة إلى الطريق الصحيح الذي حِدنا عنه بعدما سرنا فوقه طويلًا ما يزال فيه حياة ونبض أمل، لكن بالإفادة من كل ما مضى، وقراءة الدرس جيدًا، وعدم العودة إلى نقطة الصفر... من جديد...!

أجل، يستطيع الكبار من كلا الطرفين المتخاصمين أن يعلنا ميلاد حكومة وحدة وطنية قوية، تكون قادرة على لمّ الشمل من جديد، يستطيع كلاهما ذلك سريعًا دون تأخير، لأنّ التأخير يدلّ على أنّ النيّة لم تصفُ بعدُ، وأن مصارع الرجال لم تهزّ شعرةً في رأس أحد، وأنّ على الشعب التائه الجريح أن ينتظر دواءً سحريًّا تنزل به العفاريت في غلس الليل...إذ طار الحلّ من عقول البشر...؟

ما أحوجنا إلى قراءة تراثنا، واستلهام العبر والعظات منه! فمن منّا لا يعرف هارون الرشيد؟ ذاك الذي كان يغزو عامًا ويحج عامًا، وذاك الذي كان يقول للسحابة: اذهبي أينما شئت فإن خراجك عائد إليّ...! هذا الخليفة الذي يروى فيه أن ابن السماك دخل عليه يومًا، فاستسقى الخليفة، فأُتِيَ له بكوز فلما أخذه قال له ابن السماك: على رسلك يا أميـر المؤمنين، لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها؟ قال: بنصف ملكي. قال: اشرب، هنأك الله تعالى. فلما شربها قال: أسألك لو منعت خروجها من بدنك، بماذا كنت تشترى خروجها؟ قال: بجميع ملكي. قال ابن السماك: إن ملكًا قيمته شربة ماء وبولة لجدير ألّا ينافَس فيه، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا.

قلت: هذا هارون الرشيد الأمير القوي الذي دانت له البلاد والعباد، ومع ذلك يرى أن ملكه لا يساوي شربة ماء ولا بولة محتبسة، فماذا نقول نحن الفلسطينيين الذين ليس لنا شيء إلاّ وجه الله ومساعدة الآخرين؟ نتصارع على أوهام، ونتسابق نحو سراب نظنه حقيقة وما هو بالحقيقة؟ أيستحق منّا هذا العرش الوهمي، أو العصبية الجاهلية اللعينة كل هذا الاقتتال...!

لمثل هذا يذوب القلبُ من كَمَدٍ   إنْ كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

....

(في الشجار الذي وقع بين الإخوة في حركة فتح وحماس في قطاع غزة)

2007/2/5 صحيفة القدس

تأملات في النفس والحياة والكون

على أجنحة... الليل

هذه جلسة أخرى لك، أجملُ من كلّ الجلسات التي كنتَ تخاصمُ فيها البحر، فتهرع نحوك الأمواج، وتؤدي القسم الحقّ على الرمل...!

هذه محاسبة ثانية، تطلبُ فيها من ماضي السنين أن يزيدَ أقواله أدلةً، كي تتيقن تمامًا "أن ماضي الشباب ليس بمستردٍ ولا يومٌ يمرّ بمستعاد"...!
وهيهات أن تكون السنينُ العجاف يا صاحِ تتمتع بحدٍّ ظاهر كحدّ الريح، حين لا تستطيع الريح أن تقلعَ المزروع من أعلى القمّة إلى دنيا القاع! وتبقى تصرخُ وتعتصر غيظًا، تودّ لو يتاح لها العبور، فتتنفس معها هواء الجوّ!

ما أطيبَ ريح المساء على الطرقات، تراها لا تتصل بإعصار غاضب ولا سموم حارقة! تتسلل من الغيمات الرطبة، وتنسلّ كطيفٍ قريبٍ من النفس، مزروعٍ في الذاكرة! وحينئذ تجزم كلّ الجزم أن باستطاعة الدنيا أن تسير على وتيرة واحدة يكون فيها الخير والمحبة مزروعين في الأعماق، ومبثوثين في كلّ مكان وزمان.
لكنّك كالزائر العجيب، الذي يحرَصُ على المفاجأة، فلا يضربُ في نفسه موعدًا إلّا أخلفه الدهر موعدًا آخر! ولا يعقدُ في قلبه قرارًا إلّا سطعت الشمس فوق القرار، ونفد الماءُ من شدّة الظمأ!
في جلساتك يا صاحبي، خلّ بينك وبين السماء نافذة مشرعة، تعُبُّ منها الهواء المعطر بالأريج، وذلك حين يهجع الكون من حولك، وتصحو النسائم تقيم رقصًا ناعمًا أو نواحًا تبعث الحزن فيه للأرواح المبثوثة تحت الغيم وفوق الريح!
لم يبقَ لك متسعٌ من الوقت حتى تخاطب الطير، بهذه الطريقة! فليست كل الطيور تعي هذه اللغة! وتدرك معنى البعد حين يكونُ جُزُراً يحركّها البحر من خط الوسط إلى كلّ قطرةٍ بالشريان!

لم يبقَ متسع من الوقت، لتعرفَ أين تتجه المراكبُ المسافرة في السحر، ولا تلك المطايا التي شدّتْ بأثقال ثماني سنوات، لم تسترح بها تحت ظلّ عابر، أو تحت غصن يابسٍ. لكنّك ستصلُ بعد هذا العناء الطويل، وتجد الوجد والتحنان يضاحك الغضّ مما تبقى لك من هذا الزمان! ستصلُ بعد كلّ هذه المسافات لا محالة! وتعلم أنك تريد من هذا الزمن ما طوّفتَ له مرارًا،" وليس ما لا يبلغه الزمن من نفسه!

ليس بينك وبين القصر المرد بالأحلام والآمال ولحظات السرور إلّا بضع خطوات، تكون بعدها في درب جديد، وإمارة أخرى من الحياة، وسفر آخر لا يسمح لك فيه بالعودة كيف كنت، ولا يقبل لك العصيان، حيث تكون قد استنفذت جميع سيوفك، ولم يبق إلّا الشهباء تقرر معها كيف يكون عدّ الدقائق أعقد من عدّ النجوم...؟ وكيف تكون المسافات حربًا قديمة...؟ وكيف يكون البحث عن حزن جديد أصعب من البحث عن إبرة في كومة من قش؟

صحيفة القدس، تشرين أول 1994م.

حتى متى يا عيد...؟

لا تقفُ بين المقابر وتحدّثني عن النجوم! فأنينُ الموتى يضغطُ على كل شريانٍ في هذا الجسد، وعلى كلّ خلية في هذا الدماغ، ولن تستطيع أن تنقلني بعيدًا عن الآلام والأحزان...!

تمضي علينا السنون، وجرحنا نازفٌ، وليلنا جاثمٌ في الساحات، في الطرقات، فوق المنازل، وفوق الصدور، تتناثرُ فيه الأيام الجميلة، وتضيعُ فيه آمال الحيارى والغلابى، وتنقلبُ ابتسامات الأطفال إلى دموعٍ وصرخات...!

عجبتُ لهذا الزمن، أو لناسه، أو لِدُوَلِه، كيف لا تولِدُ أمام عينيّ سوى النكبات، ولا تكبرُ فيه إلّا الجراح، ولا تتمددُ فيه سوى الهزائم...؟

الأممُ الغربية أو الأعجمية بعامة، تسيرُ نحو الغد بخطىً ثابتة، وينعمون بالأمن والاستقرار، على الرغم من تعدد الملل والنحل والعقائد، إلّا هذه الأمة التي تدين بدين واحدٍ وتتحدث بلسان واحد، تجدها آخر الأمم تلهث تَعِبَةً، جاهلة، جائعة، منقسمة على نفسها، لا تصحو إلّا على المصائب، ولا تنام إلّا على الويلات...!

عجبًا، ما عاد المرء هنا في وطننا العربي، بقادر على أن يميزَ يومًا من يومٍ، أو سنة من سنة، أو قرنًا من قرن، وكأنه ينظر إلى ماء راكد آسن، ويعيش على بقعة لا تتصل بكروية الأرض، أو بعالم الأجرام السماوية من حيث الدوران أو الحياة...!

إنك يا صاحِ لا تستطيع أن تفقدَ القدرة على التمييز إلّا إذا تشابهت عليك الأشياء، وصار الفرق بينها كشعرة في الرأس أو قطرة في بحر...!

من وراء المقابر، وحلقات البكاء، ومجالس الأحزان، يطلّ العيدُ على استحياء! عابسًا، شاحب القسمات، وكأنّه قادم عبر صحراء حارة جافة، وقد قطع الأشواك، زحفًا على ركبتيه، وما جاء إلّا ليقدّم الاعتذار عن الهيئة التي جاء عليها! وعن الوقت الذي زار فيه!

ولكنّك على الرغم من كلّ ذلك، لا تملك إلّا تناديه بالعيد! ولا تملك أن تغير صورته في قلوب الأطفال، والأيام والسنين، فهو كشعاعٍ أبيضَ صافٍ لكنه انطلق بين

غبار السنين، ليس لأنه يستطيع أن يتحكم في حركته! أو كي يزيد من غيظنا على الأيام! لكنْ، لأنه لا يملك من أمره شيئًا... كهذا القضاء المسلط على رقابنا، وعيوننا صبحَ مساء...!

لكننا، لا نملكُ إلا أنْ نقولَ له: حتى متى يا عيدُ؟

لا تزورنا إلّا بين المقابر، ولا يطيبُ لك التنقل إلاّ في ظلّ الحصار، وتريدُ منّا الفرحَ والسرور وأحزاننا ترتفع إلى عنان السماء، وتودّ منا الغناء وليس فينا سوى الرصاص والبكاء والصراخ والعويل!

حتى متى يا عيدُ، يبقى حالك وحالنا هكذا من غير انسجامٍ...؟ تشتاق إلينا ونشتاق إليك، وتضربُ لنا المواعيد، وترنو عيوننا لغدك المشرق، حتى إذا حان اللقاء، تبدلت الأيام، وسلّطت سيوفها على القلوب، والأحلام، وغرزت خناجرها في كلّ فرحة عابرة، أو عرس طفولي! فأنْسَتْنا حلاوة اللقاء، وعطر أيامك المباركة؟

يا عيدُ، هذه منازلنا أبدلتْ فوق الفرح رنةً وعويلًا، وغابتْ شمسها، خلف غمام النائبات فلا ترى، إلّا ظلام الحِداد، ورعد الرصاص، وشتاء الأحزان، لا نستطيع أن نلقاك بغير هذه الدموع، ولا أن نرفعك فوق الجراح، ونسير بك بغير هذه الطرقات، فأنت ترفضُ التكلف والتصنع، وطباعنا لا تحتمل قلبين في جسد واحد!

لسنا يا عيدُ، نملكُ أن نغيرَ مسار الريح، ولا حركة الزمان، أو نحرف الشمس، أو نثبتها على وضَحٍ من النهار، أو نتحكم في حركة المدّ والجزر. فذلك فوق طاقتنا، ولم نخلق له أبدًا!

يا عيدُ، ما أحوجنا إلى أيامك الجميلة، التي نشعر فيها بالراحة والسكينة، والرضى والسعادة، ولكنّ الطريق طويلٌ، لا يزالُ فيه القلبُ والعقل، يتلظيان بمعاناته، وشواظ ناره، فليلنا ثقيلٌ موحشٌ، وريحنا عاصف، وجرحنا لا يندمل! فمتى تشفى الجراحُ، وينجلي الليلُ، فنلتقي يا عيدُ بالثوب الذي يزيدك جمالًا، وبالقلوب التي تهتف بحبك العظيم، ومجالسك الغرّاء التي تفيض محبة وتسامحًا ولقاءً ... حتى متى يا عيدُ...؟

1994/3/14، صحيفة نابلس

كيلا تحزن...!

لا أحبُّ أنْ تغلقَ بابك في وقتٍ يتزاورُ فيه الناس...! أو تنأى بنفسك بعيدًا، وكأنّك تُحددُ جرعات الهواء المرسلة، هذه لك وهذه للناس! بعدما أدخلتني إلى خلجات قلبك، ودفقات دمك، وتاريخك الذي صنعناه يومًا بيوم، ومساء بمساء... فرأيتك من الداخل كما رأيتك من الخارج! لأنّك لست على قدر من قوة تستطيع بها أن توقف الحياة، أو تتحكم في نواميسها الصارمة، أو تغمض عينًا جفاها النوم في لحظة من ألم...!

إني أعلمُ كيف تفكر، حين يكون الصمتُ بلاغة الحكماء، والإشارة ضربٌ من المجاز، لو تحولت إلى معنى يدرك، لكانت ضربة من سيف أو إيذانًا بالنفخ في الصور!

هذا لأنّك بعيد، أو تحاول أن تكون بعيدًا عن عدسة العين، مهما مرّ الزمان عليك، وغيّرت الأيام من لونك، وهرول عنك الماضي بقضّه وقضيضه، ولم يتبق منه غير ذاكرة لا تصلح للنسيان أبدًا...! قد ذقتَ سيدي، حلاوة العيش، والحلوى لم يبق لها طعمٌ في فمك الذي اعتاد العسل، وأنت تقبع بين الأمر والنهي، وتحسبُ أن الحياة لا تستطيع المرور إلّا من تحت قصرك المرد، ونوافذك العاكسة، وحين يسمعون صوتك، يصابون بصدمة، وكأنك تجبّ الخطايا، وتضاعف الحسنات...!

وقد علمتَ حالي، ضعيفًا لا أستطيع أن أتألم من وقع سمومك في جسدي النحيل، أو أن أستطعم بوخز أخطائك حين تزيدني بعدًا عن الشاطئ، وقربًا من التيار...!

سرتُ خلفك زمنًا، اعتقدتُ فيه الصعود يوصل إلى راحة منعشة، أجاور بها النسر، وأعبُّ بها نسائم عليلة، تسبحُ في نفسي، وتغسلني من الآلام ومشاقّ السفر!

كنتُ لا أسمعُ لأحدٍ حين تتكلم! أغلقُ مضائق نفسي بحرّ الشوق واللهفة، وأتركُ لك المنبر، وأتوجه إليك مقبلًا بحواسي السبع معزولًا عن العالم والفضاء والضوضاء وحركة الحياة إلا منك، حتى إذا نقل الهواء موجات صوتك علمتُ أنك المعقود للنصر، فأردد حروفك بالقلب والعقل، كان ذلك الحاضرُ معي دائمًا يعيدُ على مسمعي قول صاحبي:

لمنْ تُطلبُ الدنيا؟ إذا لم تُرِدْ بها   سرورَ مُحبٍّ أو إساءةَ مُجْرِمِ

فأفهمُ كلامه فهمًا، يزيد من محبتي لك، وإعجابي بك، ودفاعي عن أيامك الغراء...! لكنّه بعد ذلك الفصل الطويل، عاد شاكيًا إليّ، وحين فتحتُ له مصاريع قلبي، هتف يقول بأسى وذهول:

ألا لا أري الأحداثَ مدحًا ولا ذمّا   فما بطْشُها جهلًا ولا كفّها حِلْما

فعلمتُ أن الزمان قد جمحَ، وأنّ البطش لم يك جهلًا، ولا الكفّ تحلمًا، ولا المصيبة فقدًا، ولا الحياة تطلبُ لسرور مُحبٍّ أو إساءةٍ لمجرمٍ...!

علمتُ أن إغلاق الباب بمفتاح الروح، خلعٌ لها من الجسد! وعلمتُ أنّ ذلك الشاعر أوتي من الحكمة ما جعله يرى الناس لا كما يرون أنفسهم.

وعليّ يا صاحِ، أن أكونَ وحيدًا، وأجعلك مع الناس، حتى أراك، لا كما كنت تُحدّثني، ولكنْ كما كان يتحرك صوتك عبر موجات الهواء... يدخل القلب دون استئذان... والآن هوى إلى الأرض... آهاتٍ وشكوى؟

1994/4/14م صحيفة نابلس

تحت المطر...!

الآن جئتَ بعد هذا الفراق المرّ... تجلسُ على النافذةِ، وتحكي لي قصة القلوب الحزينة! وتروي لي أخبار السحب المسافرة التي لا تحملُ جوازًا، ولا تعرفُ حدودًا؟ الآن يا صاحِ، وقد انتظرتك عشرات السنين أمام الأزقة الخالية، في الدروب الممتدة، في الفيافي البعيدة، علّني ألمحُ منك خيالًا أو ظلًّا يقيسُ الخطوات بدقات القلب، لا بالأمتار!

الآن تأتي، لتفتح لي الدنيا التي أقفرتْ منها الأماني، وتطايرتْ منها الأحلام الوردية الناعمة؟ قلتُ لك: كنْ دائمًا طفلًا، خذْ الحكمة من عيونهم وهم يجلسون مع الحقيقة، تعلمْ كيف تطلق ضحكتك المدوّية، وتبكي مثلهم؛ فهم حين يضحكون، تضحك قلوبهم في البدء، لا يعرفون المجاملة أو التصنع! وحين يبكون تبكي قلوبهم، حين تكون لا تتسعُ لفرحة صغيرة من بعد ما امتلأت بالحزن!
إنّ في الطفولة، معاني عميقة، لا يصلُ إليها الشك باليقين، ولا يبتعد عنها اليقين بالشك، ولا يحتملها التكلف أو النظرة العابرة...!
أنتَ يا صاحِ، بحاجة إلى أنْ تُجالسَهم، لتتعلمَ كيف يكونُ الصدقُ خالصًا، وكيف تكون الحياةُ في نفوسهم أوسعَ من البيداء أو من البحار، حين يلهون، وأضيقَ من سمّ الخِياط حين يغضبون!
لم يبقَ لك مكانٌ تستريحُ فيه من الأسفار!
ولا منزلٌ تأوي إليه في هذا الليل الماطر، وما عليك إلاّ أنْ تجلسَ تحت المطر، وتستمعَ لحديث السماء وقد أعدّت الغيوم والبرق والرعود، وفتحت شآبيبها فوق الجبال والسهول والآكام! لتعلمَ كيف تكون الوعود محققة؛ فلا تستطيعُ غيمةٌ قاتمة أن تكتم عنك سرًّا، ولا أن تخفي حنينًا أو مولودًا تقذفهُ في باطن الأرض فيتحركُ من حولك، فيبعث في نفسك سعادةً عابرةً لكنها تهزّك هزًّا؟

لكني مضطرٌ أن أكون معك بعد الطواف الأخير! حين تكون وحيدًا... مثقلًا بالهموم، وقد طاردتك الأحزان ليل نهار، ومن حجرة إلى حجرة، لا أستطيعُ أنْ أتركك تغمس قدميك في ماء غاضبًا، وأبقى بعيدًا، أو أن تبوح عيناك بالدمع خلف النوافذ، والستائر، وتقضمَ الأوجاعَ وحدك، وأبقى بعيدًا متدثرًا بعباءة الصمت؛ لأني أعلمُ جيدًا أن دمعك إنْ لم ترَهُ عيني فلن يجفّ، أو تلمسه يدي فلن يبرد، أو ألثمه بصمتي فلن ينتهي...!

وقد عوّدتُك قديمًا أن أكونَ معك، حين تكون الرؤية محدودةً، في ليلٍ سقيمٍ توقظ آهاته سعادة نوم الأبرياء...!

تعالَ يا صاحِ، فإنّ الخروج من الحياة حياة أخرى لا يعرفها سواك!! حياةٌ من نوعٍ آخر، لا تخضعُ لقوانينهم أو مفاهيمهم، فكلّ شيءٍ عندهم مصاب بعلّة؛ لذا تراهم يشكون من الحقيقة، وهم صنعوها، بمواقفهم التي اعتادتْ أنْ لا تنظرَ إلّا لذاتها، فتشاكوا فتشاكلوا، وتباكوا فتشاكسوا... تعالَ فإنّ السماء بدأت تعيد للجو صفاءه رويدًا رويدًا، وتسحبُ مواكبَ الغيم من ساحاتها، وكأنها تعلنُ بدء صفحة جديدة...!

يا صاحِ، إنْ أردتَ أن تفهم البشر فلا تبتعد عنهم فترة، ثم ارحل بعيدًا بعيدًا، فسوف تجدُ في ذلك كثيرًا مما كنت تحتاج إليه، من علم اليقين، والقرار الصحيح! وستدركُ أن الفارق في حالتي القرب والبعد، كالفرق بين الصفاء الذي تمنحه السماء وأشعة الشمس، والضيق الذي يأتي به المطر والعواصف بعد ذلك والرعود...!

وربما يتبادر لذهنك لحظة أنك بحاجة للحالتين لتعيش، لكنّي أؤكد لك أنك لن تستطيع أن تختار سوى أن تضنّ بأحزانك وسعادتك لنفسك فقط، أو لمن تحبّ، ففي الحياة متسعٌ للفوضى التي لم يألفها طبعك، ولتجارة القيل والقال التي لم يعتد عليها لسانُك، ولمراقبة الناس التي لا تروقُ لقلبك، وكراهيةٌ عمياء لم تستقبلها جوارحك قطّ في يوم كان...!

ذلك حديث، يا صاحِ، باحت به نفسي، تحت المطر، حين فضّلت الشمسُ التي نعشقها الانسحاب، فعبث الظلام وراءها وانسلّتْ خيوطه، تحت أكوام الغيوم... ودفقات المطر...!

1997/3/12م

الحلم... والحياة...!

الوليدُ الجديدُ في مهده تراه أحيانًا يبتسم وهو غارق في نوم عميق، تسألُ نفسك: ما الذي يبعثه على صياغة هذه الابتسامة؟ هل أحسّ أن أحدًا داعبه أو لامسه أو أشار إليه إشارة لم يستطعْ أن يعبر عنها إلّا بالابتسام؟

وقد تراه أحيانًا يصرخُ باكيًا دون مقدمات، يفاجئك بصوته، فيقطع عنك لذّة نومك، ويسرقك من أفكارك إن كنت مستيقظًا، وقد أوهمك أنه نائم مسافر عنك في لذّة النوم السحيق... وأنت أمام ابتسامته أو بكائه تقفُ حائرًا إن أردت التعليل، وربما ترضى فتقنع نفسك أن حلمًا جميلًا تراءى له في نومه فابتسم، أو حلمًا مزعجًا مرّ به فتظلّمَ بالبكاء...! وستنفقُ وقتًا طويلًا دون طائل إذا حاولت أن تجيبَ نفسك؛ هل الأطفال في سن الأسابيع الأولى يحلمون كما نحلم؟ وكيف يحلمون وهم لم يعايشوا غير مجموعة صغيرة من الأصوات المبهمة التي ترتفع وتنخفض من حولهم، ومجموعة من الصور التي تحضر حينًا وتغيب حينًا آخر، أو مجموعة من نسمات هواء الحياة التي يأخذون منها ما يقيم حياتهم، ويتركون خلفهم حياة صاخبة تقوم ولا تقعد، وتموج ولا تهدأ، وتثرثر ولا تسكن، وتعمل ولا تتعب...!

قلتُ لك ستنفقُ وقتًا طويلًا ولن تصل إلى إجابة مرضية، أو حجة يهدأ بها سؤالك الثائر! فالأحلامُ ترتبط بالحياة التي هي ذهاب وإياب! ونوم وعمل، وحركة وهدوء، وتفكيــر مستمر ثم تأمل هادئ... وربما كان للأطفال الصغار حظ قليل ناتج عن المثيرات لحواسهم، ولكنّ الشيء المؤكد أنْ لو أتيح لهؤلاء الأطفال من القدرة على وصف ما يبعثهم على الابتسام أو البكاء لأفصحوا لك، ولقالوا أنهم سمعوا صراخًا فخافوا وبكوا، أو أنهم رأوا عصفورًا صغيرًا يطيــر حولهم، أو أنهم في حالة تمرين على حركات العين فابتسموا أو عبسوا، أو سمعوا أو رأوا أمورًا ليس بمقدورهم أمامها إلّا أن يبتسموا فتراهم، أو يبكوا فتسمعهم!

لكنّي في الحقيقة لا أريدُ أنْ أقصّ عليك كيف يحلم الأطفال، فيبتسموا أو يبكوا! أو أن أحدّثك عما يُرى في المنام؛ لأنّ النوم سَفَرٌ يبتعدُ فيه الإنسانُ عن نفسه، وهي فيه، وهجرٌ للعواطف وهي تجري في دمه، وهدنةٌ مع العقل وهو المسيطرٌ في المرء، والحاكمُ لسلوك الإنسان في جلّ أمره.

أريدُ أنْ أحدّثك عن الحياة التي تعبثُ بنا ونعبث بها أحيانًا، الحياةُ التي أول ما تقابلها، تقابلها بالصراخ! والناس من حولك في نشوة عارمة لا توصف، وسرور ساقه طول الانتظار، فقد جاءهم شريك جديد لحياتهم، يمدّهم بالأمل ويحدوهم على العمل... وحين تفارقهم في آخر العمر يلتفون حولك حزانى مفجوعين، يغشاهم الضيق، ويشتطّ بهم البكاء... الحياة التي منذ اللحظة التي تخرج إليها تصبح واحدًا من أجزائها، تأخذ نصيبك فيها من كلّ شيء؛ من الهواء والشراب والطعام، والآلام والأفراح...!

وكأنّك حين تمتـزج مع كلّ ذلك توافق على هذا العرض، موافقة المُكّرهِ، فكأنّك توقع على عرضٍ لا تعرف مضمونه وأبعاده. وليس أمامك إلّا أن توافق! إذ ليس بمقدورك أن تعيش في غنى عن الماء أو الهواء أو الشمس أو الطعام أو الناس...! تلك هي الحياة... أو تلك هي المتاعب!

الغريبُ يا صاحبي أن شروط العقد هذه نرضى بها وتجعلنا كائنات حيّة، تبقى هي مركز حياتنا، قوامها كلها، نتخيّلُ أنها سهلة سلسة المنال عند البدء، فإذا ما خرجنا من كلّ حلقة إلى التي تليها، فمضت السنون، زادت حاجاتنا، وكبـرت مطامعنا، وتعددت مطالبنا، فانفجرت أمامنا المصاعب، فتركتنا مرضى تارة أو فقراء تارة أخرى، وكلما مضى يوم من هذه الحياة شعرنا أننا نتورط أكثر، ونغرق في وحلها أو جمالها إن شئت! وهو تورط لا ينتهي إلّا وقد شحب الجلد منا وانحنى الظهر...!

هذه الشروط تصبح أحلامنا وهواجسنا وأفراحنا حين تتوفر، وأحزاننا وهمومنا حين تضيق مساربها، ويصبح الوصول إليها في غاية التعقيد...!

أكثـرُ الناس يا صاحبي حين تسأله عن حلمه، يقول لك: "أريدُ أنْ أعيش." وقد تضحك أو تخفي ضحكتك ظاناً أنه يُشْكِلُ أمره عليك! ولو تأملت جوابه لوجدته صادقًا كلّ الصدق، إلّا إذا كنتَ تخالُ العيش وافرًا سهلًا يأتيك مع ضوء الشمس، ومرّ الوقت دون كدٍّ أو جهد...! وذلك لأنّ الحياة لا تستقيم بعنصر واحد، أو بشرط منفرد منعزل عن بقية العناصر، فليس بوسعك أن تقول سأتعلمُ هواءً وأتناولُ فاكهة من هواء، وأنامُ في الهواء وأسافر في الهواء، وأحلمُ بالهواء، وأحصُلُ على الهواء، فقط كي أحيا! ليس بمقدورك أن تختار عنصرًا واحدًا وتقول هذا يكفيني! ولا أبتغي سواه؛ لأنّك إنْ فعلتَ كنت كمن يقول سأعيشُ برأس فقط دون حاجة إلى أطراف أو قلب أو أمعاء، أترى ذلك ممكنًا؟

وإنْ تأملتَ قولي ستجدُ أنّ الهواء الذي يظنّه الناس أسهل العناصر وأدومها له من التكاليف على الإنسان مثل الذي لباقي العناصر، فقد يصبر الإنسان على طعام أو شراب مدة من الزمن، لكنّه لا يطيق الصبر عن الهواء لحظة قصيرة...! الهواء الذي يأتيك صافيًا عذبًا، فيدخل في جوفك فتنتشي له حواسُكَ كلها، الذي يأتيك وقد قطع المسافات البعيدة فوق البحار، وعانق الأشجار والجبال والسهول، وحمل لك من طيّب الزهر وعبق النبات ما يجعلك تستسلم لعليل نسيمه ورقّة ريحه...!

هو كالماء الذي تشربه! أتراك لا تميّـز بين جرعة الماء الزلال، من الماء الآسن! أو الأجاج، أو الذي تدخلتْ فيه يدُ الإنسان فسكبتْ به من المطهّرات الكيماوية ما يجعله كالدواء المرّ الذي تمجّه النفس أحيانًا...!

وأنت بعد ذلك تستمتع بالخروج من زحام المدن إلى رحاب الطبيعة الخلاّق، وتجدُ نفسك هارباً من تلوث الأجواء، هنا إلى السهول والجبال والأشجار وجداول الماء... هناك يدُ الإنسان تدخلتْ فأفسدتْ عليك هواءك وماءك، وهنا ما تزال الطبيعة تنمو وتترعرع كما شاء الله أن تنمو على سجيتها الحلوة، ورحم الله من قال:

لِمَ لا أميلُ إلى الرياضِ وحسنها وأعيشُ منها تحت ظلٍ ضافي

والزهرُ يلقاني بثغر باســـمٍ والماء يلقاني بقلبٍ صافي

أحلامُ الناس يا صاحبي، نوعان؛ الأول يتــراءى لهم في منامهم فيكون مزعجًا تصحو منه النفس وهي تتمنى أن يكون حلمًا عابرًا لا حقيقة! وتارة يكون حلمًا عذبًا جميلًا تتمنى النفس أن يمتدّ إلى أطول فترة ممكنة، ولا تحبّ أن تفيق منه وقد ولّت صُوَرُهُ، وتلاشت أحداثه، وحين تصحو تحاول أن تسترجع ذلك الشريط لتعيش بعض متعته مرة أخرى، لكنه يكون كالغمام الذي استمتعت بظله ثم انزاح عنك رويدًا رويدًا، وكشف لك أشعة الشمس الملتهبة في أواخر أيام الربيع. وآخرُ حلمٌ نرسمه في حياتنا، وهنا تكون المعضلة، ومصارعة الزمن، وشقاء الحياة...!

أحلامنا في هذه الحياة نفصّلها بعقولنا، ونرسمها بأقلامنا وحساباتنا، نرسمها على الوجه الذي نحبّ، لا على الوجه الذي يمكن أن تتحققّ! ونجهر بها تارة، ونكتمها تارة أخرى؛ فقد يكون في كتمانها نجاة وأمل وراحة، كما قد يكون الجهر بها ضيق ويأس وفشل. ولستُ أدري لماذا سُميتْ بالأحلام؟ ولكنْ من المؤكد أن هذه التسمية ترتبط بعلاقة قوية مع أحلام المنام التي تراها لحظة وأنت تغطّ في نومك، مع أنها لا وجود لها في العالم الخارجي، فلا يراها غيرك، ولا يشعر بها سواك...!

والجامعُ بينهما إذن، هو مرورها في الذهن مصوّرة لفترة ما دون أن يلمسها أحدٌ من الناس غير صاحبها، حتى إذا نطق بها على مسمع من الخاصة أو العامة قد يكون لها بعض الأثر حينئذ...

فيعجبون متفائلين أو يتعجبون متشائمين!

أحلامُ الناس تتفاوتُ بينهم كما تتفاوتُ أشكالهم وألوانهم وضحكاتهم! أو قلوبهم وعقولهم! أو كما تتفاوت أوضاعهم، فيكون منها البسيط السهل، ويكون منها الملتوي الصعب، ومنها ما لا يدرك إلا بمعجزة كبرى...!

الفقيــرُ قد يحلم أن يحصل على قوت يومه، ويعيشُ مستورًا، والمتوسط الحال قد يحلمُ أن يصبح غنيًّا يستطيع شراء الأشياء التي لا يملكها ويملكها من هو أحسن منه قليلًا، والغني قد يحلم أن يكون أكبــر صاحب ثروة في بلده، يحتاج إليه الناس ولا يحتاج إلى أحد... وقد نجد من يحلمُ أن يحصل على شهادة عليا، أو يجتاز بسلام وأمان مرحلة ما في حياته كأن يكون طالبًا أو مريضًا أو مسافرًا...

أحلامُ الناس كثيــرة لا تعدّ ولا تحصى، نعدّ منها كما ترى ولا نعددها! وهي عندي على ثلاثة صور؛ أما الأولى فهي الممكن جدًّا تحقيقه وهي الأحلام القصيرة في مدتها الزمنية أو هي الآنية كحلم المسافر في الطائرة أن يصل المطار، وينزل البــر، وحلم النائم أن ينقضي ليله، وحلم الموظف أن تأتي إجازة نهاية الأسبوع، وهذا النوع يتحقق بالصبر القليل... وأما الثاني من الأحلام فهي الممكن تحقيقها بصعوبة، وفي هذا النوع تكون أدوات التحقيق ليست معدّة بشكل جيد، فالجهد الذي تحتاجه أكبــر، والوقت أطول، واحتمالات النجاح ليست مضمونة غيــر أنها ممكنة ،كحلم الطالب الضعيف أن ينجح في الثانوية العامة، وحلم الفقيــر أن يصبح تاجرًا كبيــرًا، وحلم الجندي أن يكون وزيرًا للحرب ، فهذه الأحلام وما أشبهها ليست مستحيلة لكنها بعيدة المنال لحاجتها لجهود جبّارة وصبر طويل...

وأما الصورة الثالثة من الأحلام فهي المعقدة خطوطها، والملتوية طرقها، التي نستطيع أن نقولها أو نكتبها ولا نستطيع أن نعدّ لها خطة سهلة مضمونة التنفيذ والنجاح، وفي هذا النوع تكون أدوات التنفيذ شبه مشلولة، وأكبر من طاقة الفرد، كأن تحلم أن تحفر في وسط الجبل نفقًا بفأس ومجرفة، دون أن تعي طبيعة الصخور وطول المسافة؟ وكحلم جيشٍ صغير ضعيف أن يحقق النصر المؤزر على عدوه، ولا يمتلك شيئًا من مقومات النصر؛ لا القائد الخبير الحكيم، ولا الأسلحة المناسبة، ولا يعرف حجم قوة عدوه الحقيقية أو يعرفها وكأنه لا يعرفها...! وكحلم الجاهل أن يكون عالمًا له شأن في زمانه، وغير ذلك من الأحلام التي لا نستطيع وصفها بالمستحيلة، لكنها تحتاج إلى تفكير وقدرة وعمل متواصل وإرادة جبارة وإيمان ثابت...

1996/1/15م ثم نشرت في دار ناشري للنشر الإلكتروني في 2014

كبار النفوس... مخلصون!

ما رأيتُ أصدق من قول المتنبي وقد قصد نفسه بلا شك حين قال:

وإذا كانت النفوس كِبارًا   تَعِبَتْ في مرادها الأجسامُ

واستوقفني تعليق الدكتور طه حسين، حين رأى أنّ المتنبي سيصيب كثيرًا لو وضع النفوس الصغار موضع الكبار، وجعل النعيم مكان التعب، وسيصبح البيت:

وإذا كانت النفوس صغارًا   نعمتْ في مرادها الأجسام

وطه حسين يرى أن كبار النفوس تحمّلُ صغارها أعباء ثقالًا؛ لأنها تُسخِّرُها لما تريدُ من عظيم الأمر، وصغارُ النفوس تكلّفُ كبارها آلامًا لأنها تقصر أن تبلغها من عظيم الأمر ما تريد!

لكنّ زمن المتنبي ولّى، ومنذ قرون طويلة، وربما إلى غير رجعة، لا يزيدنا الشوق إليها سوى حسرة وبكاءً، فتلك عصور ذهبية إذا قيست بما نعايشه من ضعف وهوان، حتى أنّ المقارن بين اليوم والأمس، يكاد ينكر أن لهذه الأمة ماضيًا عريقًا، ومجدًا مؤثلًا، إذ إنّ ما نحن فيه من فرقة وجاهلية لا يمتّ بصلة إلى ذاك الماضي، أو إلى ذلك المجد!

وتراني أوافق ما ذهب إليه الدكتور طه حسين، فزمنه ليس بعيدًا عنّا، وقد عاش ورأى ما رأينا، كيف يسخّر كبار النفوس صغارهم، في تحصيل ما يريدون، وتحقيق ما يطمحون، وهم نائمون، بعيدون عن الجهد، لا يعرفون من مضي الزمن سوى إشراق الشمس وغروبها، فقوله ذاك يوافق زمنه في مطلع القرن العشرين ومنتصفه أيضًا.

لكنّ صغار النفوس اليوم، غيرهم بالأمس، فهم الذين يتحركون حركة القوي الجالس على الأرائك، أو وراء المقاعد الفخمة الدوّارة، يلهون مع مساعديهم من الفتيات والفتيان، ولا يكلفون أنفسهم من قراءة الصحف إلاّ حلّ الأحرف المتقاطعة، وآخر الإعلانات!

وأصبح الواحد منهم، لا يشير عليه الخيال بشيء إلا كان حقيقة، فهو يملك أن يهنأ دون كدّ وعناء، ويملك أن يكون الهواء نقيًّا في حجرته، دون الخروج إلى الريف، والسير بين البساتين، أو في رحاب الطبيعة الغنّاء!

فمن الصواب إذن أن كبار النفوس وأصحاب الآمال البعيدة العريضة والإيمان القوي، قد توقف زمانهم! أو صَغُر وتقوقع في جماعة من البسطاء الغلابى، الذين أصبح أكبر حلم لهم أن يعيشوا من كدّ أيديهم، مستورين، لا يحتاجون زيدًا أو عَمْرًا!

وهم على هامش الحياة، يزرعون، ويجني غيرهم، ويكدون، ويكسب غيرهم، ويسهرون لينام سيدهم نوم ربّات الحجال...!

وهم الذين وصفهم أبو العلاء قديمًا فقال:

إذا نالوا الرغائبَ لم يُباهوا وإن حُرموا العظائم لم يُبالوا

وبعد، ألا ترى أنّ دلالات الألفاظ تتغير من عصر إلى عصر! وأن كبار النفوس الذي نعدّ شاعرنا المتنبي واحدًا منهم قد اختفوا من على شاشة الحياة! وأصبحت دلالة لفظ كبار النفوس التي عناها المتنبي، غير التي هي في هذا الزمان!

وأنت في أعماق نفسك تدرك أن زماننا الذي نحياه، هو الذي يسير على هذه الشاكلة من الوصف، وهو الذي يستحق منّا الوعي والإدراك والصبر، إذ لا تعجبني الدلالة التي سارت إليها "كبار النفوس اليوم" فهي تجعل الفضاء الواسع الممتد بين الخافقين فضاء حجرة صغيرة، وتجعل من غابة الأشجار الضخمة نبتة في وعاء تسقيه بكأس ماء صغير!

إنّ كبار النفوس مخلصون لأحلامهم المقدسة، راضون بوعد الله، لكنهم لا يكفون عن العمل، ولا يكتفون بالقليل، ولا يرضون بلقمة العيش فقط، ولا يجنحون للهو واللذات، بل يتسلقون الأيام بجهد كبير، وشكيمة وإصرار، ولا ينزلون قبل أن يحققوا كلّ حلم عزيز رفيع...! فليس الذي يسعى إلى المجد ينتظر تذكرة سفر، كي ينطلق، إذا لا يوجد في خريطتهم مناطق في المجد تقبل التقسيم. فكلّ شيء مغموسٌ بماء الحياة ممزوج بعلقم، وكلما روّضت نفسك على الشرب

اكتسبت علمًا وتجربة في معرفة المذاق حين يكون ضربًا من عسل أو مرارة من علقم، فذلك يثبت أنك على الأرض في الحياة، قادر على الكفاح وتحقيق الأحلام...!

نيسان 1995 صحيفة النهار

المخلصون... غرباء

قديمًا كان الفيلسوف أفلاطون يأخذ على الشعراء ضعفهم في كشف الحقيقة التي طالما يسعى إليها الإنسان، ويتهمهم أنهم يتملقون الناس فيما يقولون، فكأنهم يكشفون صورة غيرهم أكثر ما يعبرون عن أنفسهم من مشاعر وأحاسيس.

وقد جاء علماء النفس بعد ذلك فأوضحوا أن الأدباء أكثر عرضة للتفسير النفسي من غيرهم؛ لأنهم يتكلمون ويفصحون عن أنفسهم، ويصورون ما يجيش في صدروهم، مخالفين أصحاب المهن الأخرى كالأطباء والمهندسين والحرفيين الذي يمكن أن يمارسوا عملية الإخفاء، فلا تحس بما يشعرون، ولا تعرف بم يفكرون، فصنعة الأدباء بألسنتهم بالكلام والتعبير، وصنعة هؤلاء بأيديهم بالعمل والحركة!

ونحن من بعد ذلك لا يستقيم بأذهاننا غير صورتين اثنتين للإنسان؛ صورة لواحد يمارس حياته بصدق نابع من أعماقه، يعيش الحياة كما يؤمن بها قلبه، ويرضاها عقله، وصورة لآخر يستطيع أن يكيف نفسه مع الواقع الذي يعايشه، يسير كما يريد، بعيدًا عن قناعته ورضا عقله وإيمان قلبه.

أقول، الإنسان وليس الشاعر؛ لأنّ الشاعر إنسانٌ قبل أن يوهب نظم الشعر، وسعة الخيال، والقدرة على التعبير. والخُلْفُ أنّ الشاعر يقوم مقام الإنسان في مواقف متعددة، بينما الإنسان لا يقوم مقام الشاعر في جلّ المواقف.

والإنسان منذ خلق آدم -عليه السلام- يسعى نحو الكمال؛ ذاك الذي رآه بعض الفلاسفة في الجمال المخبوء في الحقيقة، وهي موجودة في الكون معدومة في الواقع. فحياتنا قائمة على التناقض، لذا نقضي الحياة باحثين عنها، وآملين الوصول إليها يوما ما؛ لأنك ما دمت تسعى لتحقيق هدف ما، فذلك دليل على أنه غير موجود.

وكثير ما نصل إلى الكمال والمثل بالأحلام التي إذا قُدّر لها التمام عادت في نظرنا ناقصة تحتاج أشياء كثيرة لا تظهر إلّا بعد التمام...؟

أجل، لا تستطيع حقيقة في الدنيا أن تلبس غير الصدق ثوبًا جميلًا، تعمر به القلوب، وتنير به الدروب، وتصفو به النفوس. والحقّ أنّ الله أقام الدنيا على الصدق منذ سكب في الإنسان فطرة الإيمان، ومكّنه في الأرض، وأراد له حياة هانئة على الأرض؛ فسخّر له كل شيء؛ في طعامه وشرابه ومسكنه، ونموه البدني والعقلي، ليس ليكون بعافية فقط، لكن ليكون خليفة الله في الأرض، ذاك الطائع المخلص الشاكر الحامد الصابر المحتسب!

لكننا نعيش زمنًا، غُيّبتْ فيه الحقيقة، أو صودرتْ، أو اعتقلت بعيدًا، أو أُلْبِستْ ثوبًا آخر لا يليق بقوامها الجميل، ولا بصورتها الصادقة!

قد غُيّبتْ الحقيقة، وشُوّه الجمال، وقلّ الصدق والوفاء؛ بل المُثل الإنسانية كلها، أصبحت كالذهب، نفيساً وغالياً، لا يُقْبِلُ عليه إلا الأثرياء من مبادئهم، المعدمون من الثراء المعروف!

لعل سنّة الأقدار شاءت أن تكون المثل السامية نظريات نطمح إليها، ولا نسير نحوها خطوة واحدة! قد نحبها ونعشقها، لكن لا سبيل إلى معايشتها، في البيت أو الشارع أو الحي، أو السوق، أو حتى في المسجد!

لكنّ دين الإسلام حين تغلغل بالنفوس، استطاع أن يجعل هذه القيم حقائق تتحرك على الأرض، فكان المسلمون الأوائل شواهد على حياة المثل، وأدلة على قدرة الإنسان أن يعيش بها دائمًا، ولا يشرك معها شيئًا يخالف تعاليم هذا الدين الحنيف! فهل لأولئك أجسام تختلف عن أجسامنا؟ وعقول لا تشبه عقولنا، وغذاء ينعدم في عصرنا؟ والإجابة بالنفي صحيحة مؤكدة، فهم مثلنا في أجسامهم وعقولهم وغذائهم، لكنهم لا يشبهوننا في فهم هذا الدين أبداً؛ هم فهموه على أنه منهج حياة، ونحن فهمناه على أنه شيء نتزين به في المناسبات، يوم الجمع، في الأعياد، في رمضان وغير ذلك مما نراه شيئًا حسنًا جميلًا، لهذا

كانت بينه وبين حياتنا فجوة عميقة، وهي فجوة تعني وجود مسافة شاسعة بيننا وبين الخالق، لا بيننا وبين الدين فحسب!

كم رجالًا قضوا ونحبهم لأجل كلمة الحق؟ تلك التي آمنوا بها أيّما إيمان، فدافعوا عنها، وذاقوا في سبيلها الشقاء والعناء، لكنّ ذلك لم يزدهم إلّا إيمانًا وصبرًا، فماتوا وهم مثال، وعاشوا وهم مثال!

وقد عاب بعض النقاد على الشاعر المتنبي المبالغة في المدح، والهجاء، فقالوا هو الذي إن مدح رفع، وإن هجا وضع، ومهما قيل فيه وفي حياته، فهو من الذين دفعوا ثمن ما آمنوا به من مبادئ ومثل، فقتل دون قوله:

الخيلُ والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ

أمّا ما نحن فيه اليوم، فهو نوع آخر من زمن جديد، لم يعشه غيرنا ممن قضوا، ولم تعش فينا مثلهم ومبادئهم، فبتنا بكل أسف نفقد شيئًا من إنسانيتنا، وصورًا من أخلاقنا، وقواعد من فهمنا الديني الصحيح. بات الكثير غائبًا، والقليل مغيّبًا، وأضحت أعمالنا مزوّرة ترفضها العقول، وتبكي لها القلوب؛ إذ إننا نعيش لترضى عنا الأمم، ومن جعلهم الزمان سادة يحكمون في مجلس الخوف، وأصبح مقياس الحياة الصحيح -وما هو بصحيح- بقدرتك على التشكل والتلون، وإن شئت، بقدرتك على النفاق، والانسلاخ من عادات شعبك وأمّتك ومعتقداتها، وصار الحديث عن الماضي ونماذجه الفاضلة في تاريخ أمّتنا تخلف ورجعية وتعقيد، لذا فعادتنا مقلوبة، وأحوالنا متعددة الألوان، وقلوبنا كليمة، وعقولنا متصارعة، والمخلصون الثابتون على القيم والمبادئ غرباء، يوصفون بالجنون أحيانًا أو المثالية المطلقة البعيدة عن الواقع!

فإذا أنت أردت أن تحيا موصوفًا بالتقدم والحضارة والوعي؛ فعليك أن تتعرى من معتقداتك ومُثُلِك، وترتدي ما يطيب لخشبة المسرح، وإن كان ذلك تراجع وتنازل وتخاذل، وتنكر للحقيقة...!

وما يؤلم في هذا الميدان، أن ترى جماعة من البسطاء الفقراء تحاول اللحاق بهذا الركب الطويل، وتشدّ عيونها نحو كلّ جديد لا تستطيع الوصول إليه، وتتحسر

لأنه فاتها أو سيفوتها، ولن تستطيع مواكبته! ورحم الله الرافعي رحمة واسعة، فكلامه الجميل لا يفارقني، وأستحضره وهو يقول: "ربما عاب الناس السموّ الأدبي أنه قليل، ولكنّ الخير كذلك، وأنه مخالف، والحقّ كذلك، وأنه مُحيّرٌ والحسنُ كذلك، وأنه كثير التكاليف والحرية كذلك".

وأعود لكلام أفلاطون الذي كان به مبتدأ الحديث، فأرى أن فيه ظلمًا للشعراء، وإنصافًا للناس، حين يكون بوسع الكثير إصلاح القليل، وحين يكون الظلم سيد الأحكام، إذ لا عدل ولا صلاح، والصدق قليل، والوفاء ندرة، والنسيان داء العصر! وما ذاك إلّا كي تكون من الذين يمارسون حياتهم بصدق، يعيشون عليه حياتهم راضين، مطمئنين، ويفارقون عليه لا يتمنون أنهم عاشوا غيره إلى الأبد...!

تموز1995 صحيفة القدس

في العام الجديد... نقول!

العام الجديد يقف على الأبواب، يدخل الواقع المضارع، نراه بأعيننا، ونتذوقه بجوارحنا، ويترك فينا أو في بعضنا أسئلة كثيرة، تكشف عن مشاعرنا اتجاه الزمن عامة، وهذا العام بخاصة! هل سيكون أفضل من العام الذي في طريقه لينقضي؟ هل سيحقق الأمنيات والأحلام؟ هل سيجتمع شمل العرب فيه؟ هل سيتوقف الانقسام والتشرذم في عالمنا العربي؟ هل سيكتب للفقراء والمظلومين سنة أفضل مما عاشوا؟

أسئلة كثيرة تدور في نفوس الكثيرين، ممن اعتادوا الوقوف طويلًا على حركة الزمن!

إنّ مشاعر الإنسان ترتبط بالواقع الذي يعايشه في كلّ لحظة! وهي تتباين من واحد لآخر؛ فهناك المتفائلون المفرطون بالتفاؤل! وهناك القانطون المغالون بالقنوط! وهناك الهاربون من الزمن، الذين لا يعيشون لهدف سامٍ، ولا لمعنى نبيل من معاني الحياة! وهناك البسطاء الغلابى، الواثقون بإيمانهم، وبقدرتهم على الاستمرار في العطاء والتضحية، الذين لا يكلّون ولا يملّون، يعدّون الزمن وتقلباته اختبارات لإرادة الإنسان، فيصبرون على البأساء والضراء، بقلب نقيّ مؤمن بالله، ومؤمن بالنصر الذي لا بدّ سيأتي في نهاية الأمر!

وبحق، فأنا لا أحبّ الحديث إلاّ فيما أجد الناس عنه يبتعدون، ومنه يهربون، ويكرهون مواجهته؛ لأنّ الناس كما يقول الدكتور طه حسين صاروا يميلون للدعة، ويكرهون المشقة والعناء، فبانت المسافة بينهم وبين الأدب، لكثرة ما طرأ من وسائل التيسير فيما يقولون ويسمعون، ويثقفون به أنفسهم، وصار الوصول إليهم لا يتحقق دون المرور عبر الأهوال...!

ولا غرو في أنّ الإنسان في عصرنا مشغول بهمومه الخاصة، غارق بالبحث عن توفير العيش الكريم لأسرته، ليس بوسعه أن يقرأ معك شيئًا، أو يستعيد معنى جميلًا، أو يبحث في موضوع مشترك، تجده يفضل أن يعبث بالوقت عبثه بسبحة

كبيرة! يشعر أن جرحه أعمق الجراح، وأنّ همومه أنكى الهموم. ولو خرج من نفسه قليلًا ونظر من النافذة لوجد أن الحياة تسير على شاكلة أخرى، وأنه ما يزال بعيدًا عن الواقع!

لكنّك تتألمُ من الأعماق! حين ترى هذه الصور تنتشر هنا وهناك، هذه الصور التي ما تزال تصرّ أن الحاضر سيبقى أسوأ من الماضي، وأنّ القادم لن يكون أفضل منهما! المشكلة أن هذا المقام لا يسمح بالحديث الطويل؛ لأن الواقع مؤلم جدًّا! وينعكس ألمه في سلوكنا، فيسكب الدمع من المقل، ويتغلغل في الخاصرة، ويبقيك تطارد أصواتًا مشتتة، وصورًا وهمية، لا يعترف بها رسمٌ واحد!

ليس هناك من داء تعيشه الأمّة أخطر عليها من التفرق والانقسام! والضياع والغربة والظلم! وسيبقى صوتنا ضائعًا من المحيط إلى الخليج، وتبقى المعاناة مستمرة إلى ما شاء الله أن تستمرّ! ويبقى أطفال العراق والشعوب المسلمة يتنسمون الهواء العربي الأصيل بنظام التنقيط، ويتلقون الدعم والمساندة والوعود بالنصر عبر شاشات التلفاز وأجهزة المذياع!

العام الذي نشيعه اليوم، محمول لمقبرة التاريخ، ختم أوراقه ورحل بعيدًا عن الواقع! ليس بوسعك أن تعدّل فيه شيئًا، أو أن تصلح فيه خطأ! ليس أمامك شيء إلّا أن تعترف لنفسك حين تخلو بها أنك مطالب أن تكون على طريق جديد ترسم فيه ما تشاء من الأقوال والأفعال!

ما نزال على هامش خارطة الأشياء، نحتسي من الفنجان المزخرف بالحضارة، زمننا الحاضر، نبحث عن خط واحد، وهدف واحد يجتمع عليه الناس! نترقب غليان الماء البارد، وبثّ الحياة الأفضل عبر الهواء! ندعو من قلب واحد أن يتحقق وعد السماء!

العام الجديد يا صاح، دفتر أبيض تستطيع أن تكتب فيه ما تشاء، بوسعك أن تكون أقرب للخير والأمل من الشقاء! بوسعك أن تبدأ صفحة أخرى تجعل حياتك حبًّا وعملًا وأملًا!

الغافلون عن حركة الزمن، هم الذين يدور بهم الزمن في هيئة واحدة، فيظنون أنهم سيبقون أسياد الناس؛ رؤساؤهم ووزراؤهم وقضاتهم وتجارهم... وهم في الحقيقة يطحنون كلّ يوم من حيث لا يشعرون! يحرقون أوراق الماضي، لأنهم بعيدون عنه بأهوائهم وغرائزهم، ومتمردون على نهجه وشريعته، لا يقتربون من المساجد في العام إلّا في صلاة العيدين! ويتركون في اليوم خمس فرائض، خوف الاصطفاف مع الناس، وتحسس آلامهم وآمالهم؛ لأنهم يرون أنفسهم فوق ذلك!
فهنيئًا لمن ملأ قلبه بالإيمان والمحبة والوفاء، وجعل أيامه عطاء وبناء وتضحية، هنيئًا لهم في عامهم الجديد، يزرعون من ورد الخميلة ما تسمو به الفضيلة، ليبقى وطنهم واحدًا، ونصرهم إلى الأبد!

12/30/ 1995 صحيفة القدس

حديث البسطاء...!

ليس هناك موضوع مفيد لا يكلّف قائله كثيرًا من العناء والمشقة! والذين يتحدثون في أيّ شيء، وفي أيّ وقت، يعلمون أو لا يعلمون، أن لديهم عادة تشبه المرض في الثرثرة بلا طائل! ولو علموا أن الحديث الجميل المفيد يحتاج تفكيرًا، ووعيًا، وأسئلة لأكثروا من الصمت وقللوا من الكلام! أمّا القارئ أو المستمع فحاله مختلف؛ فهو لا يبذل جهدًا يقاس بالمتحدث أو الكاتب، فقد يكون حاضرًا بجسمه غائبًا بقلبه حين يستمع، وقد يكون حاضرًا بعينيه بعيدًا بوعيه حين يقرأ! لكنّ القارئ المتميز هو الذي تهوي كلُّ كلمة يقرأها إلى قلبه قبل أن يتمتم بها لسانه، ويعرضها على عقله وأحاسيسه، يتأملها، ويقلبها يمينًا وشمالًا، حتى إذا تركت فيه أثرًا، حفظها عن ظهر قلب!

ولن أفعل كما فعل الكاتب إبراهيم المازني حين أراد كتابة مقال ما، ونظر إلى النافذة، فرأى صبيًّا يلعب بالحصى، ويهيل الرمل، وفتاتين تتحدثان وتتضاحكان، فقال: ماذا يعبأ هؤلاء بما كتبتُ أو بما عسى أن أكتب؟

والحقّ أن الكتابة ليست مشروطة بحال الناس، فرحوا أم غضبوا، رضوا أم سخطوا، فالكاتب حين يكتب يعبر أولًا عن مشاعره نحو حدث ما، ويعبر عن رؤيته من ذلك الحدث، وقد يتصل ما يكتب بحال الناس، وقد لا يتصل بأحد سواه. ولو كانت الكتابة مقيدة بحال الناس، وهل سيقبلون عليها أم يعزفون عنها، لما نظم شاعر قصيدة، ولما كتب مؤلف قصة أو مقالة...! ولما احتجنا إلى هذا الكمّ الهائل من المؤلفات منذ العصر العباسي حتى يومنا هذا، وإلى هذا الكمّ الذي لا يحصى من أسماء الكتاب والشعراء والنقاد والمفكرين...!

فحياتنا عندئذ ستكون أقرب من عالم المثل، والأحلام، منها إلى عالم الخير والشر، والحقّ والباطل، والمبالاة واللامبالاة!

إنّ فوضى بعض الناس، في حياتهم بإقبالهم على غير النافع والمفيد، وعدم احترامهم للكلمة، ورأي الآخر طبعٌ مسكوب في أنفسهم منذ النشأة، ودلالة على الضعف أكثر منه إلى القوة، وهو موجود وحاصل في كلّ زمان ومكان...

لذا تجدّ أنّ مفعول الكلمة في السامع ينقص بمضي الوقت، ومرور الزمن، فتجده في الساعة الأولى منجذبًا أيّ انجذاب، ومنفعلًا أيّ انفعال، يسقط عليه الكلام وهو في غمرة الحنين والشوق والانتعاش، كما تسقط النقطة فوق الحرف، والماء فوق اليابس، وتراه بعد ذلك في تحول عجيب، وتغير مريب، وتناسٍ للحالة التي كان فيها ولا سبيل لإعادته للحالة الأولى إلّا بشق النفس، وتجديد العهد والقسم!

ومن يستطيع أن يجحد صورة ما نحن فيه؟ من القلق النفسي والاضطراب وعدم الشعور بالطمأنينة؟

ولو أتيح أن يسمى هذا العصر باسمٍ صحيح وفق حالة الناس، لكان الاسم (عصر التناقضات) من أدقّ الأوصاف والأسماء! هذا الزمن الصعب، الذي لا تستطيع أن ترحل منه إلّا إليه؛ حين تسمع وترى وتفكر! والفاجعة أننا نمارس هذا التناقض بمحض إرادتنا، ومنتهى قناعتنا، وإذا عاتبت أحدًا يومًا لِمَ هو بوجهين أو ثلاثة أوجه؟ سيقول لك صادقًا: هكذا الحياة الآن يا صديقي، كلها مجاملات، ولا أستطيع أن أواجه الناس بأخطائهم، وأعقد لكل منهم محكمة خاصة! عليك أن تداري الناس فيما يفعلون، وتجاملهم ليشعروا أنك قريب منهم، بعيداً عن معادلة الخطأ والصواب!

وقد يكون في تبريره هذا بعض الصواب وفق رؤيته؛ إذ يرى إننا لا نفعل كلّ شيء ونحن به مقتنعون؛ فهناك أمور ينظر فيها إلى الغاية وليس القناعة؛ فقد تعزي أحدًا كان مخاصمًا لك، فلا تملك إلّا أن تكظم الخصام، وتظهر له المشاركة في حزنه، أو أن تزوره حين يمرض، أو تجامله في فرح....

والصواب أنّا نفعلُ ذلك ونحن مقتنعون بمبدأ العفو والمسامحة، إذ إننا مسلمون قبل كلّ شيء، ومن أخلاق الإسلام أن نلتزم بمبادئه وأخلاقه، ولا يجوز أن نسمي

ذلك مجاملة ومداراة، ففي معنى الأولى عقيدة الإسلام، وفي الثانية معنى النفاق، والاثنان في تضاد ظاهر واضح...!

ما أكثر الذين يحاولون إخفاء الشمس، حين يقنعون أنفسهم أن الأمر لا يحتمل انتظارًا، ويضغطون أعصابهم لخلق واقع لا يتصل بواقع الناس، ويعلمون أبناءهم الحقد وحفظ الخصام، ويحبون أن يعيشوا في أجواء التشاحن والتوتر، ويرون ذلك عين الصواب! كأنّ الصواب لا يمرّ إلّا من عيونهم، كأنهم خلقوا للصواب، وخلق غيرهم للخطأ!

رحم الله خليلنا أبا عبد الرحمن الفراهيدي، حين أكبّ على دراسة الشعر العربي، وأقسم أن يخرج لهذا الشعر بحوره وأوزانه وقوافيه، تحديًّا للفرس وسائر العجم الذي كانوا يزعمون أن ليس لشعر العرب إيقاع معين، أو ضابط يضبطه، فمكث في بيته لا يبرح التفكير والتأمل في هذا الشعر. ويقول الرواة إنه كان يدخل رأسه في باب بئر، ويتكلم، ليسمع الصدى، فيتيقن أن لصدى الكلمات إيقاعًا واحدًا تكون عليه حين تكون متآلفة، فخاف ابنه عليه حين رآه على تلك الحالة، وخرج يصيح بالناس أن أباه قد جُنّ! فهرع الناس لبيت الخليل فوجدوا الأمر على ما وصف الغلام! فرفع الخليل رأسه، ورأى جمع الناس حوله، الابن مشفق عليه فنظم هذين البيتين:

لو كنتَ تعلمُ ما أقولُ عذرتني   أو كنتَ تعلمُ ما تقول عذلتكا
لكن جهلتَ مقالتي فعذلتني   وعلمتُ أنّك جاهل فعذرتكا

وكثيرٌ يا صاحبي، هم الذين يوافق حالهم هذا الشعر، حين يحرصون أن رأيهم لا يأتي منه الزلل، ويعتقدون أن جراحهم دائما هي الأكثر ألمًا بين الجراح، وهم الذين لا يقيمون عذرًا لساكت، ولا يعذرون سفرًا لغائب!

فأولى بنا نحن البسطاء أن نحفظ عقولنا وأحلامنا من اليأس والكآبة، ونجدد إيماننا بقدر الله الذي ليس منه مفرّ! رضينا أم سخطنا! "وعجبًا للذين يحضرون الجنائز ويستطيعون أن يفكروا بشيء غير الموت"...!

نيسان 1996 صحيفة القدس

نظرات بين الماضي والحاضر

كنتُ أقلّبُ صفحات ديوان أبي العلاء المعري -رحمه الله-، ولعلني أميل كثيرًا إلى هذا النوع من الأدب! ذاك الذي قلّ في أيامنا هذه، قلّةً لا سبيل للوصول إليه. لكنّك إذا ما قرأت فيه، فأنت ستخرجُ منه وتتفق معي أنّ أولئك الشعراء هم بحق من سَمَوْا باللغة إلى أعلى مرتبة، وذاقوا حلاوة بلاغتها، وامتطوا أعنّة الألفاظ والأوزان والقواعد، فأنتجوا لنا تراثًا أدبيًّا هو بحق قلادة العرب في حلّهم وترحالهم، وسفرهم وتجارتهم، وطعامهم وشرابهم، وأفراحهم وأتراحهم، ومجالس عملهم وسمرهم.

لذا انبعث نور هذه اللغة في الآفاق، وانتشر أريجها في أقاصي الأرض؛ فكانت أشعارهم صورة زاهية تستوحي منها ما جبلته الصحراء في نفوسهم، وما جادت به الخواطر من أشعار على ظهور الخيل، والإبل. تستوحي منها جمال الصفاء، وحلاوة المعاني ودقّتها، وتستلهم عبر ذلك كله أصالة الانتماء...! ويظهر في ناظريك ذلك العصر العربي الماجد الذي سار فيه الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلّا الله والذئب على غنمه...!

وتجدني بعد ذلك كله، أخرجُ من هذه الأجواء التي تتوق إليها النفس، لأسأل وإياك -بعد هذه العصور الطويلة- الفاصلة بين أولئك الأمجاد وواقعنا الذي نعيشه معًا، عمّا سنتركه نحن لأجيالنا القادمة من تراث...!

أقول، لقد وَجَدَ العربيُ المسلم اليوم وبالأمس ما يتغنى به من ماضٍ عريق، شيّده العربُ والمسلمون على مدار أكثر من عشرة قرون خلت، فماذا أعددنا نحن لجيل الغد؟

سأقف عند هذين البيتين من ديوان المعري قبل أن أجيب:

أتمشي القوافي تحت غير لوائنا ونحنُ على قوّالها أمــــــراءُ
وما سلـــبتنا العزّ قطّ قبيلةٌ ولا بات منّا فيهم أُسَــــــــراءُ

لا شكّ أن المعاني التي ذهب إليها الشاعر واضحة جلية، تحمل في طيّاتها لهيب السؤال، ومرارة الإجابة؛ إذ إنّ القوافي المستخدمة على المجاز هنا يريد بها الأمور التي نعيشها، والقرار الذي لا نملك صنعه، ذاك الذي سُلبَ منّا، كما سلبت الأرض والمقدسات، وصرنا دمى وتماثيل بأيدي الأعداء يديرونها كيف شاؤوا.

هذان البيتان، بعيدًا عن المناسبة التي قيلا فيها، يترددان في ضمير كلّ عربي ومسلم حرّ، غيور على ما وصل إليه حال الأمّة من تردٍّ وقهقرى...! وفي ذلك كشف عما نحن فيه، وإجابة مؤلمة لأجيال الغد، فليس هنا ما يكتب، أو ما يستحق الكتابة في عصرنا حتى نجعله ذخرًا لأبناء الغد...؟

ربما يستصعبُ المرء الوصولَ إلى مثل هذه النتيجة، ولكننا لا نملك وسيلة لتبريد ما يتجدد تسخينه، ولا نهجًا نبرئ به المغرورين والجهّال؛ فأمتنا العربية والإسلامية لا تتجاوز خط الصفر، ولا تكاد تبلغ أيّ مبلغ في حضارة من الحضارات التي سطرّها الماجدون الماضون من هذه الأمة...!

نحن الآن نقف على أعتاب عام جديد، ما تزال أوراقه بيضاء صافية، لا ندري ماذا سيكتب لنا فيها، أو ماذا سنكتب في سطورها؟ هو هذا العام الجديد الذي تنعقد له الآمال والتمنيات كغيره من الأعوام التي سبقته ثم أدبرت مولية إلى غير رجعة...!

لا تبعد السنون التي تترى علينا أن تكون بمثابة السيف الثقيل الذي يبحث عن الرجل المؤمن الصلب في اقتحام الهول، وسبر المحن، ويجدد أمر هذه الأمة من بعد الاندثار، ويرفع رايتها خفّاقة بعدما نُكّستْ الرايات، وادّلهمَّ الخطب!

المواطنُ فوق الأرض العربية، وفي غمرة الشتات والضياع الذي يتعرض له الإنسان العربي المسلم، لا يزال ينتظر القائد المظفر، ويحلم بالجسد الواحد، والتئام أعضائه، ويرنو إلى الغد بحزن الواقع وأمل القدر...! فلماذا لا يكون عامنا الجديد عام الوحدة، وقد جربنا التفرق والتمزق فما حصلنا منه على صابٍ ولا عسل؟ لماذا لا نبدأ بصنع حضارة عربية إسلامية حقيقية، تبنى من كنوز الأرض، وبأيدي أهلها، وبعقول المبدعين من هذه الأمة؟ ونكفّ عن التغني بالماضي؛ لأن

التغني فيه فقط لا يزيد في جمال حياتنا، قدر ما يبين عجزنا عن الوصول إليه، واللحاق بالأمم الحيّة التي نطاردها في عيوننا وقلوبنا وسلوكنا... مقلّدين، حائرين هائمين...!

فإنّ الفتى كما قال الإمام علي -رضي الله عنه- من قال ها أنا ذا وليس الفتى من قال كان أبي، ويحضرني قول المتنبي:

من للسيوف بأنْ يكون سميّها   في أصله وفِرِنْدِهِ ووفائه

نريد من الماضي أن يورث العزة، والإقدام والسؤدد، نريد الدعاة المخلصين الذين يفهمون الواقع، ويستخلصون من عنائه وشقائه سبب الشقاء، وآفة الأجيال، ويعملون على تطهير العقول أولًا من صداع الهزيمة، وغلغلة المظاهر البراقة الخادعة، ويسمحون للروح ولأصوات الجرحى والبسطاء والشرفاء أن تركب القطار، وتكتب الخير والعطاء، وتشيد البناء الكبير مع غيرها من المخلصين.

كانون أول 1996م، صحيفة القدس



نبذة عن المؤلف

(حسن طاهر أبو الرُّب)

من مواليد جنين/جلبون 1967/11/4م، ومن سكّان مدينة نابلس. درس المرحلة الأساسية في مدرسة جلبون الأساسية، والمرحلة الثانوية في مدرستي حيفا وحطين الثانوية في جنين، وحصل على شهادة البكالوريوس ثم الماجستير في اللغة العربية وآدابها في جامعة النجاح الوطنية، وشهادة الدكتوراه في اللغة والأدب عام 2006 في معهد الدراسات العربية في القاهرة. كتب العديد من المقالات النقدية والقصص القصيرة والقصائد الشعرية، ومجموعة من الأبحاث العلمية المحكَّمة، وشارك في عدة مؤتمرات داخلية وخارجية.